توماس غونزالس

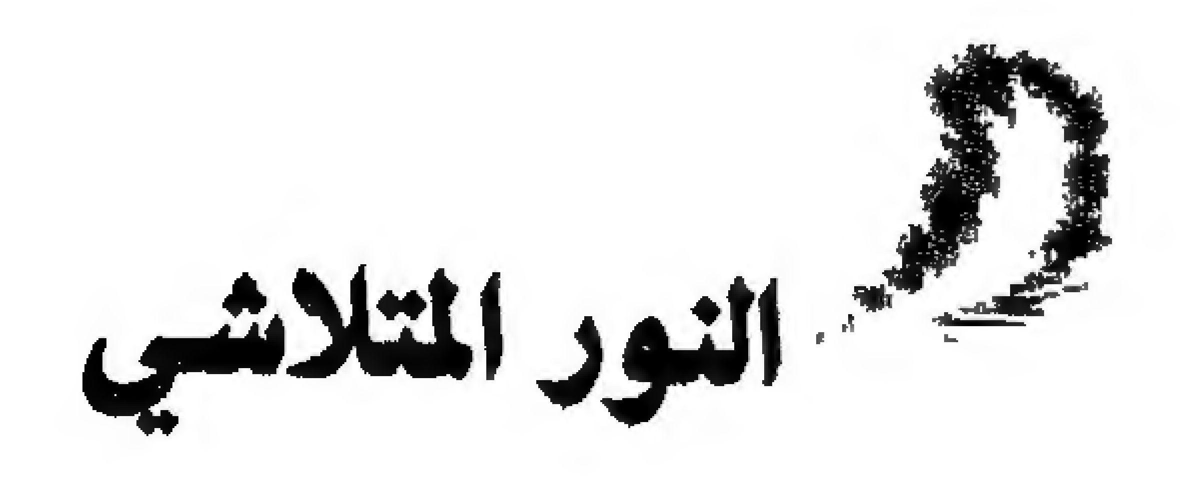
النور المتلاشي

النفق المسدود

رواية

ترجمة : راغدة خوري




النور المتلاشي

- **توماس غونزالس**
- **النور المتلاشي**
- **ترجمة: راغدة خوري**

- الطبعة الأولى 2014
- الإخراج الضوئي: هالا خليل
- الناشر: **دال للنشر والتوزيع**

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: 29170

هاتف: 00963 944 464830

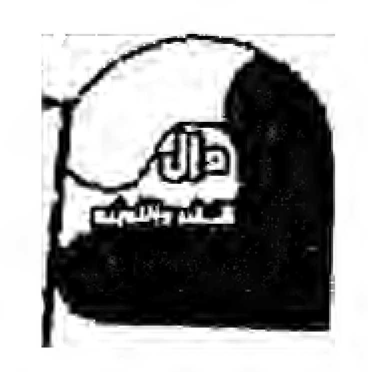
البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

توماس غونزالس



رواية

ترجمة: راغدة خوري



العنوان الأصلي للكتاب

La lumiére difficile

Thomas Gonzalez

الفصل الأول

هذه الليلة، قضيت شطراً مستيقظاً. قربي، كانت سارة غير غافية. نظرت إلى كتفيها السمراوين وظهرها الذي لم يزل أهيف بالنسبة إلى سنينها التسع والخمسون. كنت أجد سلوى في تأمل جمالها من حين لآخر، ونحن نمسك بأيدي بعضنا البعض. في الشقة، لم يكن أحد قد نام، ولم يكن أحد يتكلم. من وقت لآخر كان أحدهم يسعل أو يذهب إلى الحمام ويعود ليستلقي. جاء أصدقاؤنا، ديبرا وجيمس، كي يساندوننا، واستلقيا على فراش في الصالون. نامت صديقة جاكوبو الصغيرة فينوس في غرفة الصبيان، كان ولديّ جاكوبو وبابلو قد غادرا منذ يومين في سيارة «فان» مستأجرة متجهين نحو شيكاغو حيث كانا سيأخذان الطائرة المتجهة نحو بورتلاند. كان يخيّل إليّ أحياناً أني أسمع الموسيقى الهامسة لغيتار أرتورو ثالث أبنائي قادمة من غرفته. في الشارع كان هناك صدى للأصوات الليلية لشارع «لاور إيست سايد»، الأصوات

المعتادة للزجاجات المكسورة. في الثالثة صباحاً تقريباً، مرّ اثنان أو ثلاث دراجات نارية بصوتها الأجش قادمة من نادي «هيلز[1] أنجل» الذي كان شارعهم العام على بعد بناءين من شقتنا. نمت تقريباً لمدة أربع ساعات متواصلة دون أن أحلم، حتى الساعة السابعة صباحاً حين اجتاحني تشنّجٌ هائلٌ من الحزن وأيقظني على فكرة موت ابني جاكوبو الذي برمجناه في السابعة مساءاً على توقيت بورتلاند والعاشرة ليلاً على توقيت نيويورك.

---

[1] Hell's Angels: نادي غير مرخص لأشخاص يركبون الدراجات النارية، ويفتعلون المشاكل.

الفصل الثاني

قبّلت سارة ونهضت وجهّزت القهوة. ودون أن أشعر رحت أنظر إلى اللوحة التي كنت أعمل عليها. كان الوقت لم يزل مبكراً للتحدث مع الأولاد الذين كانوا قد قضوا الليل في موتيل قرب مطار بورتلاند. كان موضوع لوحتي الزبد الذي يشكّله منحى المعدّية وهي تغادر رصيف الميناء، حين يتزايد سرعة المحرك في الماء الأخضر فيرغي. جعلت اللون الزمردي للماء فاتحاً واصطناعياً، تخيلته كما لون سكاكر النعناع المزجّجة، لم أكن قد نجحت بعد بإعطاء الإيحاء المناسب للغور العميق للموت دون أن أظهره أو أجعله واضحاً. بدا الزبد جميلاً، غامضاً، مشوشاً، مفصولاً وغير مفصول عن الماء. كان رسم الزبد متقناً. خلال فترة عملي هذا الذي كنت قد بدأت فيه منذ صيف 1998، كنت أقضي أياماً بكاملها وأنا أعمل على المعدّية، ذاهباً وعائداً من منهاتن إلى ستاتن أيلاند، لمرّات عديدة، أحياناً وأنا أشرب البيرة، ودائماً وأنا أنظر للماء، حتى أني ارتبطت بصداقة مع أحد الموسيقيين المتجوّلين على الباخرة، ومع لويز لاروتو آخر ماسح أحذية باقٍ على المعدية (لويز «الفاشل»:

كنت أقول له كي أغيظه حتى ولو لم يكن يفهم هذه الدعابة بما أنه لم يكن يعرف لا الإسبانية ولا الإيطالية). مازلت أسمعه ينفخ في البوق في ممرات غرف السفينة، تشن! تشن[2]. ماسح الأحذية ذاك كان يفقد زبائنه يوماً بعد يوم بما أن أغلبية الناس أصبحت تنتعل الأحذية الرياضية. عندما تغيب الشمس بعد أن تكون قد توهّجت خلف رافعات نيوجيرسي، وعبرتها النوارس، أعود إلى البيت.

تزوجت سارة عندما كنا نحن الاثنين في السادسة والعشرين. عشنا خمسون عاماً لحين توقّف قلبها عن الخفقان منذ ما يقارب العامين. لم أعرف في حياتي نساءً أخريات، كانت سارة تمثّل بالنسبة لي كل النساء. هذا الأمر يصعب شرحه أو فهمه، لكن النساء اللواتي رغبت بهن غيرها، هؤلاء اللواتي لم أحصل عليهن البتّة، كما النساء القلائل اللواتي استطعت النوم معهن - بالتأكيد دون أن تعلم سارة بالأمر، وإلاّ لكانت تلك هي النهاية - كنّ هي بالنسبة لي. لم تحصل تلك الخيانات إلا خلال العامين الأولين من حياتنا المشتركة، عندما تكون العلاقة لم تزل تعاني من الفراغ ومن سوء التفاهم الجدّي، بانتظار أن تغدو متينة. بعدها، أصبح إخلاصي كاملاً دون أي جهد يذكر.

من جانبها، كان هناك خيانات أيضاً، أعتقد ذلك، لكن هذه الخيانات لم تحدث، وإن حدثت فبعد سنين عديدة من الزواج. ذات يوم، وكنا لم نزل في نيويورك، رأيتها في كافتيريا مع أحد زملاء العمل وهما يمسكان بيد بعضهما البعض. سألتها عن الموضوع في المساء ذاته، فلم تنفي ولم تؤكد. اكتفت بالقول إن علاقات النساء

---

[2] صوت البوق في ممرات السفن معلناً عن أوقات الطعام.

تشكل دوماً غموضاً بالنسبة إلى الرجال. لم يحمل لي هذا القول أي ارتياح، فهناك أساليب مختلفة للتماسك بالأيدي مع شخص آخر، لكن مع مرور الوقت نسيت الأمر إلى حدّ ما. المرة الثانية، حدثت عندما ذهبتُ إلى جامايكا مع جيمس وديبرا. لم أعد أذكر لأي سبب لم أستطع أنا القيام بهذه الرحلة، ومرر لي جيمس مزحة لمّح لي من خلالها أن سارة قامت بمغامرة مع فتى من الجزيرة. سألتها أيضاً، لكن هذه المرة اتهمتني بالجنون، فكيف بإمكان فكرة كهذه أن تمرّ في رأسي. مع ذلك، حتى اليوم لم يزل إحساس ما يقول لي أن تلك المغامرة قد حدثت بالفعل، فسارة لم تكن ذات طبع خجول، بل على العكس من ذلك خاصة إذا ما شربت بضعة كؤوس من الكحول. جرحني هذا الموضوع بشدة، ولمدة طويلة، وملأني بحزن عميق إن كان هذا قد حدث بالفعل أو لم يحدث، لكني تمكنّت أيضاً من تجاوزه.

ربما، هذا ما يسمى بالغيرة.

على كل حال، وحده التقدّم بالسن يقلل من الرغبة التي نحملها دوماً الواحد منا للآخر. لم أستطع أن أميّز على الإطلاق الفرق بين العشق والرغبة، إلا إن أنا قلت، أنه خلال كل حياتنا، كنا قد أحببنا بعضنا حباً جمّاً. كنت دوماً سعيداً أن أعود فأراها حتى وإن لم يكن البعاد قد تجاوز عدة ساعات. فعندما كنت أرجع إلى المنزل عائداً من المعديّة، تكون هي الأخرى قد عادت من المستشفى الذي تعمل فيه. نتجاذب أطراف الحديث ونحن مستلقيان في السرير وأقصّ عليها خلاصة ما رأيت في البحر، بعدها، كنت أذهب لاستفقاد جاكوبو وباقي الأولاد.

الفصل الثالث

وصلنا إلى نيويورك عام 1986. وفي عام 1982 كنا غادرنا بوغوتا إلى ميامي حيث مكثنا ثلاث سنوات لم أندم عليها على الإطلاق لأنها في النهاية لم تكن أياماً سيئة. كنت قد عرفت «ميامي» و«كيز Keys» قبل عام من ذاك التاريخ، ورغبت في رسمها. باستطاعتنا القول إني ذهبت إلى ميامي بحثاً عن الماء والضوء. استفدنا نحن الاثنين كثيراً من البحر خلال تلك الثلاث سنوات بالرغم من معاناتنا من ضيق أفق ميامي في تلك الحقبة. أخيراً، اتخذنا قراراً بالمغادرة مع أطفالنا الثلاثة إلى نيويورك.

في ميامي رسمت سلسلة لوحات من المناظر الطبيعية بالألوان الزيتية التي شكّلت نوعاً من الدراسة للضوء والماء. خمس عشر لوحة بقياس مترين في مترين، قمت بعرضها في معرض في «كيزويست» حيث بيعت بسرعة وبسعر جيد نسبياً. كان البعض منها يمثل شكلاً مجرداً للبحر كما نراه من طريق «كيز» وأخرى تمثل بحر ميامي: من إلفارتينو، غراندونبارك، ومن المركز. ما إن

وصلنا إلى ميامي حتى اشترت سارة والأولاد قارباً شراعياً، كانوا يبحرون به في نهاية كل أسبوع، دون أن يبتعدوا فعلياً عن الشط، لنقل بالأحرى أنهم كانوا تقريباً يلامسون الرمل، لكنهم كانوا يتسلون كما لو أنهم كانوا يجتازون الأطلسي.

لاحقاً، قال لنا الأصدقاء القلائل الذين تعرّفنا عليهم هناك إن المدينة قد عرفت تحولاً حقيقياً، وأنها أصبحت أقل ريفية، وقد غادرها الردنك[3]، وحسّن الأشخاص القادمون من بلاد أخرى الأجواء فيها. وحتى الذرية الجديدة للكوبيين كانوا أقل بلادة وأكثر انفتاحاً، قد يكون هذا صحيحاً، لكن بالرغم من كل ذلك لم نعد لا أنا ولا سارة إلى هناك مرة أخرى. ولم يكن لدى الأطفال رغبة في ذلك. فهم بعد أن قضوا عامين في نيويورك لم يعودوا فعلاً أطفالاً: كان جاكوبو في الثامنة عشر وهو على وشك أن يباشر فصله الدراسي الأول في الطب داخل جامعة نيويورك، بابلو في السادسة عشر، ويتابع دراسته في المدرسة الثانوية عند تقاطع شارع 23 من الجادّة الثامنة مع فتية يضعون الحلقات في أنوفهم وأذنيهم، ويتطلعون مسبقاً للدخول إلى الجامعة، وأرتورو في الرابعة عشر، والذي كان حريصاً بشدة على التسجيل في الأكاديمية ـ التي تقع في الشارع الثاني قرب الجادّة الثانية ـ لسبب وحيد وهو أن بناءها يقع بالقرب من الشارع 101 حيث نقطن، وهكذا سيكون لديه وقت أطول للنوم، فكل ما كان يعجبه في تلك الفترة هو أن ينام متأخراً

---

[3] Redneks: تستخدم للاستخفاف بالأشخاص أو للحط من الطبقة العاملة البيضاء خاصة في جنوب الولايات المتحدة.

ويستيقظ متأخراً، ويعزف على الغيتار ويرسم دون توقف. باختصار... كانت فترة فلوريدا رائعة بالرغم من الوقت القليل الذي قضيناه فيها. لكن أيضاً كانت كافية ووافية، استطعت خلالها العمل بطريقة مناسبة، أو بتعبير آخر، حتى البيئة الفظّة والقاحلة التي كانت تسود ميامي في تلك الفترة ساعدتني، واستطعت أن أغرق بالكامل في الرسم والذي هو عملي في نهاية المطاف ـ أو بشكل أدق ـ كان عملي، بما أن نظري الآن وأنا في السادسة والسبعين من العمر بدأ في التلف، فتوقفت عن الرسم منذ ما يقارب العام ونصف وبدأت بالكتابة مستعيناً بعدسة مكبرة.

في نيويورك، سكنّا في البداية في شقة صغيرة غرب شارع 101 ضمن كتلة من البناء التابع للمتنزّه المركزي. كان المتنزّه هو الميزة الوحيدة لهذا المكان الموجود على حدود الغيتو اللاتيني المهمل حيث الكثير من الجلبة والضجيج في الليل، والكثير من الزجاجات المكسورة، والشتائم بالفم الملآن، باللغة الإنكليزية والإسبانية. كانت عبارة عن غيمة سميكة من البشر يمنعوننا من النوم لاسيما وأني كنت قادماً من ميامي التي كانت تبدو وكأنها محاطة بملاعب الغولف. أما بالنسبة للرسم، فلم يكن هذا ممكناً ولا حتى في الأحلام. كانت الشهور الأولى في نيويورك صعبة حقاً ليس بالنسبة لسارة والأولاد لكن فقط بالنسبة إليّ، أنا الذي كنت بحاجة ماسّة للضوء، للمساحة، للصمت، ولأمور تافهة أخرى نخترعها في هذا العمر كي نعقّد حياتنا أكثر.

في هذه الفترة، لم أكن أرغب في التواجد لا في ميامي، ولا بوغوتا، ولا في ميديلين، ولا في الشارع 101، ولا أي مكان آخر.

كنت أخرج باكراً كي أتجوّل في المتنزه خلال ساعات وأنا أردّد بـأن عليّ أن أتحرك وأبـدأ العمـل، وعلـيّ أن أظهـر وجهـاً يطفح أكثـر بالسعادة أمام سارة والأولاد الذين كانوا سعداء في نيويـورك بـالرغم من أن إحباطي كان يقلقهم. سارة، الـتي كانـت قـد وجـدت عمـلاً كمرشدة في مستشفى ـ في كولومبيا، كانت قد حصلت على دبلوم في علم الاجتماع ـ فهمت أن الشارع الذي نحـن فيـه هـو سـبب تكـدّر نفسيتي، ربما أجواء الغيتو خاصته، مضافاً إليها صـغر المسـاحة في الشقة. في الصالون، كانت قوائم حامل الرسـم تلامـس تقريبـاً ظهـر أرتـورو المسـتلقي علـى الأرض مـع ذاك النتنتنـدو اللعـين خاصـته، وعندما كان يتواجد الأولاد الثلاثة في البيت، كان الضـجيج الهائـل الصادر عنهم، إلى جانب الضجيج القادم من الشارع، يدفعاني لترك حامل الرسم والخروج إلى المتنزّه كي أسير وأنـا أنظـر إلى الأشـجار. كنت أحب رؤية أشجار السـنترال بـارك، فقـد كانـت تـوحي إلـيّ بحنين خاص لوطني، لغابات الأورابـا Urabá الـتي كنـت أعرفهـا بشكل جيد، فأحد إخوتي كان يملك مزرعة هناك حيث بقي فيهـا لحين وفاته. كانت أشجار المتنزه جميلة، لاشك في ذلـك، أشـجار من الدردار والبلوط قديمة جداً على سبيل المثال، لكنها كانت أشبه بالمنمنمات إذا ما قورنت بتلك الأشجار الضخمة في أورابـا، وكانـت تجعلني أشعر قليلاً بالحزن. باختصـار، عنـدما لم أكـن أتواجـد في المتنزّه فذلك لأني أكون قـد ذهبـت إلى «كـوني آيلانـد»[4] علـى بعـد

[4] Coney Iland: شبه جزيرة وشاطئ على المحيط الأطلسي، وهـي تُعـد أفضـل متنزه ومنتجع خلال النصف الأول من القرن العشرين.

ساعة في قطار الأنفاق، والتي كنت قد اكتشفتها مبكراً وأذهلتني كما أذهلت الناس جميعاً. كان يوجد صورة لفرويد في الساحة الخشبية، وقد بدا هو الآخر مبهوراً على ما أعتقد. لاحقاً عندما انتقلنا إلى الشقة في الشارع رقم 2 بدأت وقتها برسم سلسلة من اللوحات البحرية لخليج نيويورك والتي من ضمنها كان بحر برايتون بيتش وكوني آيلاند.

في إحدى الأمسيات وأنا عائد من العمل، قالت لي سارة: هل تريد رؤية شقة عرضوها عليّ للإيجار؟ إنها تقع في منخفض بالقرب من هيوستن، في الشارع الثاني، الجادة الثانية. إنها تالفة تماماً وسعرها مرتفع. نوافذها تطل على مقبرة رائعة تدعى مقبرة ماربل.

سألتها إن كانت حسنة الإضاءة، فأجابتني بالإيجاب. فذهبنا لرؤيتها نحن والأولاد. لم تبدُ لي على الإطلاق مرتفعة الثمن، إنما تالفة بالفعل. أو بالأحرى قذرة جداً، يجب غسلها، طلاءها، وإبادة الصراصير التي فيها. كانت نوافذها واسعة ومشرعة للضوء، وصالونها واسع جدا، حيث كان بالإمكان الدخول إليه دون أي معاناة مع الأولاد، هم وملحقاتهم الالكترونية، يتسع لكنبة، ومقعدين، بالإضافة إلى مرسمي.

بعد تنظيفها ظهرت الشقة كاملة ورائعة. عقّمناها من الصراصير، فمات البعض منهم، لكن الأغلبية بقيت تعيش معنا. عند إضاءة النور في الليل، كنا نراها، دائماً هنا، صغيرة جداً، كثيرة العدد، وسريعة، وهي تبحث عن شقوق لتختبئ فيها. كانت النظافة صارمة، والرش بالمبيدات منتظم، استخدمت بورات الصوديوم.

وسحقتها بحذائي، لكن دون فائدة تذكر، فعندما كنا نشعل الضوء كنا نراها دائماً هنا. في الشقق القديمة تصبح إبادة تلك الحشرات أصعب من إبادة الحياة نفسها. كي ننهي هذه المشكلة معهم، كان يجب علينا هدم الشقة وتغطية الركام بالنفط أو بالنابال.

أحب النباتات، ويدي خضراء في زراعتها، لهذا فقد اشتريت نباتات سرخس، ويوغا، فبدا فوراً المكان يأخذ هيئة حراجية. من محل بيع الحيوانات في بليكر ستريت، اشترينا ببغاء أنثى بمبلغ مائتي دولار وأسماها الأطفال سبارتي. كانت تزعق كالمجنونة. ولم تسمح لنا بتدجينها أبداً وتطير عبر الشقة كلها. بعد عدة سنوات، اشترينا القط كريستوبال، الذي أخافها في يوم من الأيام وجعلها تهرب من إحدى النوافذ المطلة على المقبرة. بقيت الببغاء الصغيرة لمدة أسبوع كامل وهي تزعق بين الأشجار. لم ترغب في العودة بالرغم من نداءاتنا العديدة من النافذة حتى رحلت.

– رحلت إلى أميركا الجنوبية، قلت لأولادي كي أعزيهم، كي تأكل البارابو في «الشوكو»[5].

– بارا... ماذا؟ سأل أرتورو الذي لم يكن يعرف ثمار ذاك النخيل الذي بلون الدراق، ولم يكن يفوت الفرصة للسخرية، حتى في الأوقات الصعبة كهذه.

في شقة الشارع الثاني تلك عادت إلي حيويتي. أخذت في اجتياز الجانب الحضري والشبه حضري لأحياء بروكلن ونيوجرسي، وفي التقاط الصور لهم، ومن ثم رسمهم. رسمت دراجة

---

[5] Parépous au Choco: منطقة إدارية فيكولومبيا.

كنت قد رأيتها نصف مطمورة على شاطئ من الشواطئ ومغطاة بالطحالب المائية. أحب أن أشاهد ما يتداعى من أشياء يرميها الناس حين تتآكل شيئاً فشيئاً حتى تصبح غير قابلة للاستعمال وجميلة. أحب تلك الحدود. ذاك الأيك الكثيف.

رسمت سلسلة من ثماني دراسات حول الحلزون البحري، الذي يصل إلى شواطئ «كوني أيلاند» ليموت، يرقد على الرمال ليتحول إلى قواقع فارغة، ثم وبسرعة يصبح غباراً، كما رسمت العديد من الملاقط إلى جانب قطعاً من العلب البلاستيكية التي تستمر بدورها أيضاً قروناً قبل أن تتحول إلى غبار.

موضوع هذه اللوحات، بالرغم من أني لم أصرّح أبداً بذلك، كانت جليّة وضخمة، وعلى كل حال كانت مصطنعة جداً وتدلّ على الطموح، أو بالأحرى لا أدري على أي صفة تدل، وكلها كانت تعالج الهوة المعتمة للزمن. لم يكن الحلزون جميلاً، وإلى جانب ذلك فهو اجتاز ملايين السنين دون أي تحول، مثله مثل الصراصير والتماسيح. قرأت في أحد الأيام على الإنترنت أن الحلزون البحري ليس بسلطعون، على عكس ما نعتقد. إنهم يشبهون تلك الطائفة من القشريات المائية، لكن لهم في الحقيقة صلة قريبة من العقارب والعناكب. أقدم الحفريات المتحجرة عن هذا الحلزون تعود إلى حوالي أربعمائة وخمسين مليون سنة.

كان يكفي للوحة أن تتلقى القليل من الضوء فقط كي تستطيع أن تخدّر شكل جثة الحلزون المسكين. وقد بيعت تلك اللوحات، نعم، لقد بيعت لكن بصعوبة شديدة وبسعر زهيد. بعد ذلك بعدة سنوات، بدأت تتناقل من أيدٍ إلى أخرى بمبالغ فاحشة. احتفظت

بلوحة واحدة ـ الأفضل من بينهم ـ معلّقة في مكتبي، وقد كانت تزداد غموضاً وعمقاً كلما خفّ نظري وبدأت أقترب بدوري دون رحمة من الغبار.

– قالت لي سارة ساخرة: إنها خطوة أخرى نحو غياهب الظلمة أليس كذلك؟ هذا جيد، سوف تكون اللوحة التالية عبارة عن مجرد مربع صغير أسود فاحم. لا أنا أمزح أنا امزح، أضافت بسرعة، بالطبع إنها تعجبني.

تمخض ذلك عن عامين تقريبا من الوفرة الفنية، من سعادة كانت تحمل لمستها الحزينة، بما أني اكتشفت كنوزاً في كل ناحية، كمن كان يرى الحجارة على حافة الطرقات تتحول فجأة إلى حليّ. كيف كان بإمكاني التكهّن بما سيجري! المصيبة هي دوماً مثل الهواء: طبيعية، غير متوقعة، وسهلة... كنت أرسم كما لم أرسم من قبل، وأعمل بحماس، لدرجة أني كنت أنسى حتى أن أدخن أو أشرب قهوة. لوّنت الدراجة المغطاة بالطحالب أيضاً بلون قاتم قليلاً، لكن في الوقت الحالي أضفت عليها بعض اللمسات الملونة. في نيوجرسي وجدت دراجة مؤكسدة للأطفال في قطعة أرض مهملة على شاطئ البحر، ورسمتها أيضاً بشكل مكبّر، لكن هذه المرة مع المزيد من الضوء لدرجة كان من الصعب فيها رؤية الدراجة (منذ عامين رأيت هذه اللوحة في متحف في روما، حين دعوني إلى لا أعرف أي تكريم، لكن في ذاك الوقت كان نظري قد أخذ في الانحسار لأن مرضي كان قد بدأ ولم تعد الرؤيا واضحة. أعجبتني اللوحة والدراجة التي رأيتها بعد سنين عديدة، لكني تمنّيت لو استطعت تنقيح بعض التفاصيل، والتي ربما كانت ستجعلها تبدو

بشكل أفضل). بدأت أيضاً بأخذ صور لمدينة الملاهي المدمرة لكوني أيلاند ـ تلك التي ردموها بعد ذلك ـ وهي مغطاة بالنباتات ذات الأزهار البنفسجية التي تنمو في رمال البحر. «مجد الصباح» أو «مورنيغ غلوري» هذا هو اسم تلك النباتات المعرّبشة. فكرت أن أرسم مجموعة لوحات من مقاسات كبيرة مع تفاصيل دقيقة للنبتة والأزهار بشكل يُنظر إليها من زوايا تتحدّى السلسلة الهرمية ومنظور الأبعاد، وتحررني من النير الذي يفرضه عليّ التزام النظر سواء للخارج أو للداخل. كان الأمر كما لو أني كنت أحاول أن أفرّ من مكان مغلق لأصل إلى الضوء كي أتنفس بشكل أفضل. جهزت لوحات كي أرسم مدينة الملاهي. كان يجب علي أن أجعل الأزهار تبدو جميلة كي يسهل بيعها. ففي النهاية يجب أن أعمل كي أعيش.

كم من المحزن الآن فصاعداً كتابة الدعابات التي كنت أقوم بها منذ ما يقارب العامين عندما كانت سارة لم تزل على قيد الحياة «أشكال متعددة من الدعابات أو المزحات» هكذا كانت تسميها.

في هذه الفترة بالذات حدث أن اصطدمت شاحنة أحد بائعي المخدرات المخمور بسيارة الأجرة التي كانت تقل ابني البكر، عند زاوية الشارع السادس في الحي الأول، على بعد أقل من أربع بنايات من شقتنا. وهكذا دخلنا أنا وسارة والجميع في جحيم مغلق.

الفصل الرابع

لم أتوقف عن الرسم. لم أكن أصلاً قد توقّفت على الإطلاق عن الرسم حتى وقت قريب. أنهيت الدراسات التي كنت قد بدأت فيها سابقاً، وحتى أني قمت بتنقيح بعض اللوحات الأخرى، وباشرت في العمل على غيرها، لكن ولمدة طويلة، بقي عملي كرد فعل معاكس كما، مثلما يقولون: يتابع الإنسان السير حتى بعد قطع رأسه.

منذ ذاك الوقت، مرّت سنوات عديدة جفّ خلالها الألم الذي في قلبي شيئاً فشيئاً كما الطراوة في الفاكهة، وأصبح من النادر أن تهزني فجأة ذكرى ما حدث من جديد كما لو كان الأمر يعود إلى الأمس، ويبتلعني بعنف كي يجعلني أغرق في بكاء مرير. لكن، والحق يقال، هذا لم يزل يحدث، ولهذا فالحزن يهدد بدماري. أحياناً أفكر في ابني وتكون الأحاسيس حادة لدرجة أبدأ فيها بتخيل أن الحياة أبدية، جامدة وأبدية، وما الحزن إلا وهم.

في كل مرة تجدني سارة في هذه الحالة العميقة، كانت تتأملني

بشيء من المرح. مازلت حتى اليوم أسمعها وهي تسألني: «لنرى إن كنت أفهمك بشكل صحيح ديفيد. إذاً، الألم أبدي والحياة ليست إلا وهماً؟».

«كلا، الحياة....؟».

لهذا السبب بالذات أُبعد تلك السطور ولا أعود تقريباً أبداً إليها لأراها بعدستي المكبّرة: من غير المجدي رؤية في أي لحظة كنت أقترب من قسوة الحقيقة، وفي أي لحظة أخرى كنت أتحدث الترهات، طالما مازلت مستمرّاً في العيش. السبب الآخر هو أني فعلاً لم أكن أملك الوقت كي ألتفت إلى الوراء: أنا عجوز، ومنذ بعض الوقت، بدأ نظري بالانحسار بشكل سريع جداً.

في كل الأحوال ليست هناك من حقيقة، والعالم ليس أكثر من موسيقى.

اليوم، أعيش وحيداً في منزل في لاميزا، وهي مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها الثلاثون ألفاً، والواقعة في قلب كولومبيا. هنا، في هذا المكان كانت سارة لم تزل على قيد الحياة منذ عامين. كانت الباحة الخلفية تطل على وادٍ عميق يطير فوقه البغاث[6] أو النسور السوداء أو مهما كان الاسم الذي نطلقه على تلك الطيور الرائعة. أحياناً كان البغاث يطير بشكل منخفض، على بعد عدة أمتار فقط من سطح الأرض، فوق الهوّة، وإن سمح لي نظري كان باستطاعتي رؤيتها كيف تحرك ريش أجنحتها، وتغير من اتجاهها أو من ارتفاعها، بتعبير آخر، كيف كانت تستمتع بالحياة. (كنت أراها

---

[6] البغاث: نسر ذو حجم صغير منتشر في أمريكا الاستوائية.

بوضوح تام بالرغم من أنـي لم أعـد أراهـا مطلقـاً الآن. أيـن بإمكـان العالم إذاً أن يكون؟ على ماذا هو يرتكز؟).

كان البعض يُدهش مـن اكتشـاف مـا هـو وراء حـديقتنا، خلـف أشجار البرتقال واليوسفي التي كانـت سـارة تحـافظ عليهـا مشـذبة وحسنة المظهر، فتعطي نوعاً من العمق بحيث تبدو حديقة مترامية الأطراف، على وشك أن تبتلع كل شيء كما سيمفونية مخيفة.

أنا الآن بصحة جيدة نسبياً. ماعدا نظري الضعيف كنـت أعـاني من جريان سيء للدم في القدمين، خاصة قدمي اليسرى التي كانـت تسبب لي وخزاً مؤلماً في أصابعي في أحلـك سـاعات الليـل (أجهـل لماذا تفضل هذه الساعات) فلا تتركني أنام بهناء. باستثناء هذا كـان كل شيء منتظماً. بالنسبة إلى الأسنان، فها قد مرّ عليّ عشر سنوات على فقدانها إثر سيلان متقيّح وضعوا لـي علـى إثـره طقـم أسـنان. قدّمت لنفسي عندها أفضل ما في السوق وأغلاها ثمناً: «طقم الأسنان البورش» كانت تقول لي سارة، والـتي كانـت تضيف كـي تخفّـف عني، بأن هذا يشكّل تحسناً كبيراً نسبة لأسناني الحقيقية.

في الصباح، تـأتي أنجـيلا، وهـي امـرأة تبلـغ حـوالي الخامسـة والأربعين، تبقى اليوم كله، تعتني بالمنزل، وتحضر وجبـة الطعـام. كانت تشتكي من قلّة شهيتي للطعام، ومن نحـولي الشـديد بـالنظر إلى طولي، وهذا ما كان يضحكني جـداً لأن تـوازن الطـول والـوزن ليس مهمّاً لدرجة يشكل فيها مشـكلة بالنسـبة إلى رجـل في الثامنـة والسبعين من العمر. لم أفقد ذاكرتـي، فأنـا مازلـت بكامـل وعيـي، وفي العموم لا تتصرّف الناس معي كما لو أني رجل عجـوز. صـحيح أني كنت قد انفصلت عن كل ما يمتّ بصلة لمشاكل المخلوقـات ذي

القائمتين التي دون ريش، وأن القليل القليل منها، إن لم يكن لا أحد، ليس له أيّة أهمية في نظري. حتى حادثة جاكوبو، كنت متابعاً جيداً للآراء التي كانت تقال عن أعمالي، أقرأ المقالات النقدية بنهم يبدو لي اليوم غباء تام. كنت اعتقد بأنهم لا يقدروني حقّ قدري في عالم الفن. وكان هذا صحيحاً: فلمدة طويلة بقيت أعمالي دون قيمة تذكر وكان يلزم أن يتزامن عذاب ابني مع ضخامة ولزوجة رد الاعتبار الذي لم أعد أرغب فيه على الإطلاق، والذي بدا لي أنه قد حصل في هذا الوقت فقط، كي يعكّر عليّ قهري، كما المتنكّر، كما المكّاك[7]، أو كما شخص مجنون يأتي ليعكّر صفو مراسم الدفن.

بالطبع، وصل المال أيضاً مع الشهرة حيث كنا بحاجة ملحة إليه.

استولى الألم على جاكوبو بعد ثلاث سنوات من خروجه من المستشفى. كان الأطباء قد حذرونا قائلين أن الأسوأ قد لا يكون عدم قدرته على السير في يوم من الأيام إنما الألم الجسدي الذي من الممكن أن يشعر به. مع مرور الوقت أصبح الألم مستمرّاً وراح يزداد بشدة إلى درجة أنه في بعض الأحيان - ليس كلها لحسن الحظ - كان يتوجّب علينا الدخول إلى غرفته على رؤوس أصابعنا والتحدث بصوت هامس كي نتحاشى إصدار أي ضجيج من شأنه أن يجعله يئنّ أو يرتجف.

خلال الثلاث سنوات بعد الحادث قضى ابني البكر وقته في

---

[7] Macaque: نوع من قرود صغيرة الذيل من جنس الكاكا.

محاولة لمعاودة المشي مرة ثانية، وجاهد كي ينجح في ذلك. ثم لم يلبث أن فقد الأمل، ومن تلك اللحظة، وبمقدار ما كان الألم يصبح مستمرّاً وغير محتمل دوماً، أخذ يقضي الوقت في تمني الموت، والأفضل أن يصل هذا الموت أثناء النوم، قال في إحدى المرّات لسارة، وسوف يكون من الأفضل أيضاً إن وجده نائماً.

الفصل الخامس

لم أستطع التوقف عن الرسم حتى لو رغبت في ذلك، لأن النفقات ـ برغم تغطية التأمينات الصحية ـ أصبحت باهظة جداً. جهزنا البيت ليتناسب مع وضع جاكوبو بحيث يصبح من السهل عليه الانتقال والحركة، وأغلبية البكرات كما التجهيزات الأخرى كانت غالية الثمن، ولم تكن كلها مشمولة في التأمين. يأتي بعدها الألم الجسدي، والمصاريف التي تحولت من مرتفعة إلى باهظة. فعندما يبدأ شخص ما بالشعور بألم بهذا الحجم فما يهمّ قبل كل شيء كان احتواءه، والتخفيف عنه بطريقة أو بأخرى، وأي جهد يبذل لأجل التوصّل إلى نتيجة ما أو إلى نصف نتيجة كان مكلفاً جداً.

مثلاً، جلسات الطبيب المعالج بوخز الإبر، والتي في الواقع لم تساعده في أي شيء، كانت غالية الثمن ـ كلما كان الطبيب من أصل أسيوي كلما ارتفع الثمن ـ والتأمين لا يغطيها. أذكر أنه خلال عام أو أكثر قليلاً دفعنا لأحدهم كان يأتي من «شاينا تاون» ثلاثمائة

دولار للجلسة الأسبوعية. دفعنا ما لا يقل عن أربعة عشر ألف دولار في ذاك العام لهذا الطبيب المدعو «شو Shoe» (طبيب الحذاء، كما كان يلقبه جاكوبو، فاسمه على أي حال كان يلفظ شون)

كانت عيادته قرب «موت ستريت» وقد استمرّ في المجيء حتى رفض ابني ذلك قائلاً أن لا فائدة من علاجه، وأن من الأفضل عدم تبذير أموالنا لشخص مثله. في تلك الفترة، كان الألم المستمرّ قد كدّر طباع جاكوبو المسكين. أوه، وكل هذا دون أن نحسب كما يُقال أسعار دواء هذا الطبيب «حذاء» الذي كان على شكل بذور سوداء، تقريباً بحجم حبوب الفاصولياء الكولومبية، بذور مرّة الطعم جداً، والتي كان يجب على جاكوبو أن يلوكها ببطء شديد كي تعطي الفائدة المرجوة للإبر المزروعة في رأسه كما في كل أنحاء جسده، والتي كانت تجعله يبدو أشبه بالمسيح أو بخنزير ملحمي.

خلال الفترات الأولى كانت الأجهزة كثيرة ومتعددة. لم تكن تقتصر فقط على تلك التي كانت تعطي نوعاً من الاستقلالية الجسدية لجاكوبو خلال تحركاته اليومية، بل كان هناك أيضاً شبه صالة رياضية أُنشئت في إحدى الغرف حيث ـ بالرغم من التشخيص الملتبس للأطباء ـ كان ابني يقوم فيها بتمارين مرهقة متوهماً أنه ببذل كل إرادته يستطيع أن يسير من جديد على قدميه. كان هذا مجرد وهم شاركنا فيه جميعاً في وقت من الأوقات. اعتقدنا، من فرط ما رأيناه يقاوم ويتألم كما السعدان المخلّع خلال ساعات على تلك الحواجز ذات الحلقات، بأن ذلك كان إشارة لإمكانية عودة الحركة إليه، فهو نفسه قال إنه قد بدأ يشعر بأصابع قدميه من جديد. لكن كل ذلك كان دون جدوى.

كم هو قاس، ذاك القول الشائع الذي يزعم أن الأمل هو ما نفقده في النهايةً.

كان بابلو قد اكتسب عضلات نتيجة ممارسته التمارين الرياضية مع جاكوبو، وهو لم يكن يعمل على تضخيم جسمه مباهاة أو غروراً بالتأكيد، إنما كي يتمكن من حمل أخيه عندما كان يأخذه إلى الحمام، أو حين كان يجلسه على الكرسي المتحرك. لاحقاً، جاءت لبابلو فكرة أن يقوم بالوشم، وهكذا فقد وجدنا أنفسنا أمام ولد ضخم، ذو جسمٍ متناسق، بذراعين وكتفين مزينين بالجعران وبأزهار رائعة من الأوركيديا، وطباع ناعمة كما الماء وثابتة كما الحجر.

جاكوبو هو الآخر كان قد تضخم من جراء تلك التمارين الجسدية المرهقة، وظهر ذلك في ذراعيه وكتفيه بالطبع، وبالمقابل زاد الوهن والهزال في قدميه. بقي أرتورو، الذي لم يكن يمارس أي نوع من الرياضة ماعدا البينغ بونغ في المدرسة، طويلاً ونحيلاً مثلي أنا.

في شكلهما الخارجي وطريقة تصرفاتهما بقي ولداي البكران يشبهان سارة أكثر مما يشبهاني، بالرغم من أنهما قد أخذا منا نحن الاثنين. لم يكن أحد منهما يعاني من نوبات كآبة دورية كالتي لم تزل مستمرة معي منذ طفولتي. ومثل سارة، كان الولدان يعرفان دوماً كيف يتقبلان الأمور دون أن يطرحا أسئلة، هما اللذان لم يفهما على الإطلاق كيف باستطاعة أحد ما أن يصبح صامتاً ومكتئباً هكذا فجأة ودون أي سبب ظاهر كما هو الحال معي. والأكثر غرابة هو أن أغلبية كل تلك الحماقات التي يعود أغلبها إلى منشئ وهمي خيالي اختفت جميعها تقريباً أثناء مأساة جاكوبو.

فالألم العميق جداً ـ ألمه، ألمي، وألم كل واحد منا ـ انتهى بأن كنّس أسوأ شعّ[8] للعناكب الضبابية المتراكمة داخل روحي، أكثرها كثافة، وأكثرها وهمية، وتركني فارغاً من أي حزن اعتباطي.

نظرت برهة إلى زبد المعدّية، ومن ثم دخلت إلى الغرفة التي تحولت إلى صالة رياضية وفكرت أننا نستطيع تقديم كل تلك الأجهزة لبعض أصدقاء جاكوبو. أقصد البكرات فقط، لأن بابلو كان سيحتفظ حتماً بالأوزان الحديدية، وبالنوابض وأجهزة أخرى كي يحافظ على لياقته. ثم،عدت إلى المكتب، كي أنظر مرة أخرى إلى اللوحة.

كان لدى جاكوبو الكثير من الأصدقاء، ولم يغير الحادث من هذا الأمر شيئاً، بل بالعكس ، فإلى جانب الصداقات القديمة بدأ رفاق الشقاء اليافعين يأتون إليه كل يوم، رفاق من كل الأشكال والأحجام، من ناحية اللون والشخصية. كان الجميع على كراس مدولبة، يحاول أغلبهم بقدر استطاعته مقاومة الألم الجسدي الذي لم يكن يفارقهم لحظة. تعرّف عليهم جاكوبو ضمن مجموعات المساعدة المتبادلة التي يحبها الأمريكان كثيراً، والتي كنا نواجهها أنا وسارة بالكثير من الحكم المسبق ومن المقاومة، حتى اليوم الذي أدركنا فيه فوائدها الحقيقية.

أتذكر أحد الفتيان الذي كان في الثامنة عشرة من العمر، من ذوي الجمال الرائع، وكان مقعداً في الجزء السفلي من جسده كما جاكوبو، بسبب خطأ جراحي أوقعه بكل تلك التعقيدات. كان ذاك الفتى يتحدث دوماً كالطبيب:

---

[8] شعّ: بيت العنكبوت.

– كيف حالك مستر دافيد؟ تشرفت بمعرفتك، اسمي ميكائيل أونيل.

مددت له يدي وسألته كيف تجري أموره فأجابني:

– ببطء شديد، ببطء شديد مستر دافيد . فقد ظهرت تعقيدات صامتة، نوع من الغشاء العنكبوتي الدبق في الدماغ، بعد عملية في العمود الفقري بسبب فتق في الظهر على مستوى الأعصاب الفقارية. هذه المضاعفات من الورم الليفي في نخاع العظم تصيب 6.16 ٪ من الحالات بعد الجراحة في العمود الفقري، وبإمكانها أن تسبب مضاعفات بنخاع العظم، وبالتالي إلى شلل نصفي. فقد أظهرت صور الرنين المغناطيسي أني أعاني من متلازمة «ذيل الحصان» وبأني لن أعاود استخدام رجلي مرة أخرى.

– آسف جداً ميكائيل.

– ليس أكثر مني مستر دافيد... نعم ذيل الحصان... وهكذا أُصبت بشلل نصفي غير قابل للشفاء بالرغم من الغسيل الآلي والتنظير الجراحي الذي خضعت له بعملية جديدة. فالسائل المصلي في الندب سبب ورم ليفي غير قابل للشفاء. سحبوا الفقرة الاصطناعية التي زرعوها بعمليتي الجراحية الأولى وجربوا علاجاً جراحياً آخر بواسطة التثبيت الخارجي. لم يتحسن العجز العصبي. أي بمعنى آخر بقيت مشلولاً مستر دافيد، والأكثر سخرية من هذا هو أن الألم شديد جداً، وهو مستمر لا يتوقف، أشعر به في قدميّ تماماً، تلك القدمين اللتين لا أحس بهما. إذا ما غرزوا سكيناً في قدمي مستر دافيد، لا أشعر بشيء، تخيل إذاً هذا الألم الذي لا يجعلني أنام. قال ذلك كي ينهي كلامه، ولبث صامتاً ينظر من

النافذة لأشجار المقبرة مثقلاً بالألم.

بعد أن حصلت على البكالوريا، وبقيت عامين أهيم على وجهي في جميع أصقاع الأرض من أميركا اللاتينية وصولاً إلى أوروبا، وأقوم بعمل أشياء كثيرة لكن كلها كانت دون فائدة تذكر، تابعت دراسة الطب لمدة ثلاث سنوات في جامعة أنتوكيا، في ميدللين. كان باستطاعتي التكيف مع رطانة الأطباء، لكن إن كنت قد غادرت قسم الطب فذلك لم يكن بسبب كره شديد لمهنة طالما جذبتني، إنما بسبب شغفي للرسم الذي دفعني لارتياد كلية الفنون الجميلة برغم معارضة الجميع، آخذاً بعين الاعتبار بأنه لم يكن يبدو لدي القدرة ولا الموهبة الفنية. لكن تلك السنوات لم تكن ولا في أي حال من الأحوال سنوات ضائعة، على عكس ما كان يؤكده الكثيرون، ليس فقط لأن إلمامي لبعض المعلومات في علم التشريح قد أظهرت أنها مفيدة جداً في عملي لكن لأنه أيضاً بالنسبة إليّ، كان من الأفضل لنا دوماً ـ دوماً ودون أي استثناء ـ أن نعرف ولو القليل بدل من أن نجهل كل شيء.

– أنا فعلاً آسف ميكائيل. كررت قائلاً. جاكوبو، الذي كان يعاني من الآلام ذاتها نظر إليّ بعينيه اللتين بلون القهوة، الواسعتين، الذكيتين واللامعتين، والتي زاد من لمعانهما انعكاس اللحية السوداء الكثيفة التي كان قد تركها تنمو في تلك الأيام، وغمزلي غمزة تمويه، ليس فقط بسبب اللغة التي كان يستعملها ميكائيل، بل كي يعبر عن تفهمه وتعاطفه معي.

كانت نوافذ بيتنا الواقع في الطابق الثالث تطل على مقبرة تاريخية للأشخاص العظماء ـ لا أدري إن سبق وقلت ذلك ـ ذات

أشجار مورقة طوال العام. لدى وصولنا إلى الشقة، كانت وفاة هيلين لويس والاس هي الأكثر حداثة، وقد دفنت عام 1975. سوف يروي لنا جيمس بعد أربع سنوات من عودتنا إلى كولومبيا في عام 2006 أنهم قاموا بدفن أحدهم ويدعى روبرت كينيدي، في أحد الأضرحة المطلة على الشارع. في مؤخرة المقبرة شجرتي منيوليا مذهلتين كانتا أول من يزهر في الربيع على طول الشارع. كانت المقبرة مسيّجة بشبكة من الحديد على الطريقة الحديثة، وبما أن الباب كان دوماً مغلقاً بقفل، لم يكن أحد يدخل إليها. وهكذا في الشتاء كان الثلج يبقى نقياً ولامعاً. وحدهم الضفادع والعصافير كانوا يرتادونها، كما الفئران أيضاً، على ما أعتقد، بما أنه كان يوجد الكثير منها في المدينة في تلك الفترة. «حمّى الطاعون سوف تسقط علينا كي تساعد السيدا في عملها» وكنت أضيف قائلاً لسارة بخصوص الفئران «لكن على كل حال، كيف سيبدو جمال مدينة دون الحمام، والضفادع، والفئران، والمشردين والصراصير؟». فكانت تجيب: يا لهذه القائمة!.

هنا، في لاميزا تنهار السماء فجأة، فتبدأ تمطر برَداً، وبما أن منزلنا كان قديماً وقسم سقفه الخلفي من الزنك فالضوضاء تصبح رائعة. من النادر أن يتساقط البرد في لاميزا. في المرة الأولى التي رأيت فيها برد يتساقط كنت في السادسة عشرة من العمر، إنه ضجيج الضوء نفسه. من الصعب أن نعيش حالة أجمل من تلك الحالة. إنها نوع من التدمير الذاتي والانحلال الفردي، يبدأ الهواء فيها يعبق برائحة الماء والغبار فلم نعد نمثل أياً كان. حتى الكتابة لم نعد قادرين عليها.

الفصل السادس

منذ أن غادر الولدان بقينا على اتصال مستمر معهما على الهاتف المحمول. أول موقف قاما به وهما في طريقهما إلى شيكاغو كان في فندق الهوليداي إن في كليرفيلد، في بنسلفانيا، حيث كانا قد وصلا إليه بعد خمس ساعات من السفر. لم يتحمّل جاكوبو أكثر من هذه المسافة، فالألم العائد إلى حركة السيارة أصبح جهنمياً بالنسبة له. في البداية، اعتقدنا أنهما سوف يسافران في الطائرة لهذا السبب بالذات، لكن جاكوبو رغب أن يجوب العالم قليلاً، فقررا أن يذهبا في البداية إلى شيكاغو، أولاً، كي لا يصل بطريقة فجائية، ومن ثم كي يشاهدا الريف، ثم البحيرات، ومن هناك، يأخذان الطائرة المتجهة نحو بورتلاند.

كان السفر كل هذا الطريق بالبرّ، كما تخيلاه في البداية، يأخذ تسع وأربعين ساعة، وكان هذا يُعّد أمراً مستحيلاً مع آلام جاكوبو. بقيا يومين في الطريق من نيويورك إلى شيكاغو، لأنهما أرادا أن

يأخذا الطرق الفرعية وليس الطريق السريع حيث كان بإمكانهما رؤية الحقول بشكل واضح، وليس التنقل من استراحة إحدى القرى إلى الاستراحة التي بعدها. الولايات المتحدة مخيفة إن لم نكن نعرف كيف نجتازها. فإن غفا أحد السائقين وهو على الطرقات السريعة في إحدى تجمعات محطات الخدمة واستيقظ على بعد ثلاثة آلاف ميل، في محطة خدمة تجميع أخرى، لبدا له الأمر كما لو أنه لم يزل في مكانه. والشيء ذاته عندما نذهب من هوليداي إن إلى آخر، وهذا ما كان الولدان مضطران للقيام به على ما يبدو، غير راغبين بمخاطرة تحمل إزعاجات الفنادق التي على الطريق، وإلا سيبدو الأمر كما لو أنهما سجينان للأبد ضمن ما خلقه الله من أكثر الأبعاد الزمنية مللاً. بالتأكيد، كان الأولاد مثل سارة قادرين دوماً على الاستفادة من كل شيء. حتى من تلك البلدات الكئيبة.

– تصور يا دافيد، هنا في كليرفيلد توجد حانة تحمل الرقم القياسي لأكبر قطعة همبرغر في العالم ـ قال لي جاكوبو وهو يحدثني في الهاتف ـ كان أولادي ينادونني أحياناً بدافيد وأحياناً أخرى بأبي. وتابع جاكوبو قائلاً: علّقوا على الجدران مقالات الجرائد التي كُتبت حول هذا الموضوع. تبدو الشطيرة وكأنها عجلة دراجة نارية من البندورة والمايونيز. علّقوا صوراً لأنواع وأشكال أخرى غيرها من نوع مختلف، كي يكون باستطاعتنا اختيار واحدة منها، لكننا لم ننجح في ذلك.

جرى كل شيء بشكل جيد عبر الطرقات الفرعية. كانا يصغيان إلى فرقة الروك Led Zeppelin الإنكليزية وإلى فرقة آي سي، دي

سي الأسترالية على طول أطراف مصانع الألبان وحقول الذرة التي كانت تلمع تحت أشعة شمس الصيف الرائعة. كانت فينوس قد قامت بتعليم بابلو كيفية القيام بالتدليك الذي غدا العلاج الوحيد الذي باستطاعته منح جاكوبو القليل من الراحة خلال السنوات العديدة التي قضاها في العلاج والعناية، والتي كانت فعلاً راحة حقيقية من الألم. عندما كان هذا الألم يصبح غير محتمل كانا يبحثان عن مكان ليقفا فيه، فيحمل بابلو أخاه إلى مؤخرة سيارة الفان حيث وضع نقالة، ويبدأ بتدليكه لمدة تتراوح بين الأربعين دقيقة إلى الساعة، ثم يتركه ليسترخي وينام، بعدها يعاود السير من جديد.

كانت فينوس أخصائية في العلاج الفيزيائي، وهكذا تعرّفا على بعضهما. كانت من منطقة السان ـ دومينيك في كندا، لكنها تعيش في نيويورك منذ طفولتها. في البداية كانت تأتي مرة كل أسبوعين، لكن عندما رأينا أن علاجها يخفف من ألم جاكوبو بشكل واضح، على الأقل خلال الثماني ساعات التالية ـ وهذا ما كان يتيح له النوم بعمق، فيلقى القليل من الراحة ـ بدأت تأتي كل يوم جمعة. كان العلاج الفيزيائي باهظ الثمن، 800 دولار للجلسة التي تستمر لساعتين، والتأمين لا يغطي منها إلا 350 دولار فقط، لكن دون شك، كان كل هذا دون جدوى. بالطبع، مع مرور الوقت، بدأت فترة سكون الألم تلك بالتناقص حتى لم يعد هناك مجال للشعور بالراحة الحقيقية في التدليك، بل أصبح الأمر مجرد تحويل الألم من ألم غير محتمل إلى ألم محتمل. وبدأت فترات الراحة هي

الأخرى في التراجع وأخذت تنحسر شيئاً فشيئاً في كل مرة. كان جاكوبو يقول لها مازحاً ـ عندما لم يكونا بعد عاشقين ـ «بهذه الأسعار، ومع مهنتك هذه وشكلك الجميل، لابد وأن الزبائن يطلبون منك نوعاً آخر من التدليك».

كنت أفكر لو أن أحد المرضى قال لها هذا الكلام لكان من المحتمل أن تغتاظ، هي التي كانت تملك في الواقع جسداً جميلاً جداً، لكن مع جاكوبو لم تكن النساء لتغضب أبداً.

كانت تبدأ التدليك من الساقين. شكّلتُ الكثير من الرسومات على الورق بالفحم، لهذين الظلين، حاولتُ فيهم التعبير عن العاطفة الحميمة التي تنشأ بين الكائنات التي تلامس معاً الرعب في الألم. لابد وأن هذه الأشكال لم تزل موجودة هنا، داخل بعض القمصان وسط الفوضى الكبيرة التي تعمّ غرفة مكتبي. كان هذا قبل أن يبدآ في إغلاق باب الغرفة بالطبع، عندما لم تكن بينهما العلاقة الشاعرية بعد، وكان باستطاعتي الدخول والنظر إليها وهي تعمل. كانت فينوس تبدأ من قوس القدم كما سبق وقلت، صعوداً نحو الكاحلين والساقين، فتحفّز العضلات حتى يتحركوا بطريقة الارتكاس ويسترخوا. لم يكن باستطاعة جاكوبو أن يعرف ماذا كانت تفعل له، فقد زرعوا في عموده الفقري قضيب من التيتانيوم للحفاظ على استقامة الجزء العلوي والسفلي منه، وكان غير قادر على الانحناء، فهامش تذبذبات الفقرات كان معدوماً. كان يحس أن فينوس قد بدأت من أسفل الساق فقط عندما كانت تديره قليلاً فيشعر بالمنطقة التي يبدأ فيها الإحساس.

كان لون جسد فينوس داكناً أكثر بقليل من لـون جسـد سـارة، وكانتا تتشـابهان. في الطريـق، كـان النـاس يسـألانهما إن كانتـا أمٍ وابنتها. ذات مرة ذهبنـا إلى متحـف الميتروبوليتـان وشـاهدنا صـوراً كانوا قد وجدوها في أحـد أضـرحة الغـزو الرومـاني لمصـر القديمـة، فخلـت نفسـي أراهمـا همـا الاثنـتين، بشـعريهما الخشـن الفـاحم المجعّد، وعينيهما الواسعة، السوداء واللوزية الشكل. قمت حينهـا برسم لوحات لعضلات الرقبة من الخلف للاثنتين، كما لو كانتـا أم وابنتها، كانت عبارة عن نسخة من تلـك الرسـومات الـتي نحفرهـا على الخشب، وقدمتها إلى فينوس. في البداية لم تقبل أن تأخذها، ثم أخذت تبكي من الفرح. أحياناً، أكاد أنسى قلـيلاً أنهـا لم تكـن ابنتي.

الفصل السابع



سألتني سارة: هل اتصلت بهما؟

لم أسمعها وهي تقترب مني، فانتفضت. خجلت أن تجدني هنا، أعمل على ماء المعدّية بكل هذا التركيز كما لو أن شيئاً لا يحدث. لكن هي أيضاً نظرت إلى اللوحة للحظة. بدت من عينيها المحمرتين والمنتفختين أنها قد بكت. شعرت بالشفقة علينا جميعاً، تحولت تفاحة آدم في رقبتي إلى حَجرة وأصبح قلبي ثقيلاً في صدري. كانت مصيبتنا كما الغيمة الشديدة القتامة التي لا تتوقف عن الازدياد، والتي توشك أن تغطي قريباً السماء والأرض.

قالت سارة مشيرة إلى اللوحة: أما زلت عالقاً بها؟

– كلا، أجبتها، إنما الساعة الآن بالكاد تجاوزت الرابعة صباحاً في بورتلاند.

جعلا أوهايو المحطة الثانية لهما على الطريق المؤدي من شيكاغو إلى ساندوسكي، والتي كان فيها أكبر قاطرة أفعوانية كهربائية. في مدينة الملاهي تلك كان يوجد سبع عشر قاطرة

أفعوانية ـ قال لي بابلو ـ ماعدا ذلك، أو ربما بسبب ذلك كانت مكاناً بغيضاً، وهو يفضل عنها ألف مرة مدينة الهمبرغر. اعتقدت بأنه هو أيضاً مع اقتراب هول ما سوف يحلّ به بدأ الخوف يقضي عليه ويجبره أن يُظهر مزاجاً مرحاً. هذه المرة انتبهت أنه لا يرغب في التحدث طويلاً فأعطيت الهاتف لسارة. كنت أجهل ما الذي باستطاعتهما أن يقولا لها، لم تكن تقل شيئاً تقريباً، كانت تكتفي فقط بالرد: «نعم، نعم، بالطبع نعم» وتتابع سماع ما كانا يقولانه.

«أعطني جاكوبو للحظة» كانت تطلب سارة، ثم تتابع الإصغاء وهي تتمتم «نعم، بالطبع، نعم» وبعد فترة لا بأس بها يعود جاكوبو ليمرر الهاتف إلى بابلو، وهكذا كانوا يتابعون حديثهم. أو ربما بلى، كنت أعرف أو بالأحرى أخمّن: كانا يقولان لها أن ما كانا على وشك القيام به هو الأفضل بالنسبة لجاكوبو، لأنه لم يعد قادراً على الاحتمال، وأن متابعة هكذا عذاب يشكّل جريمة، فهو لم يكن يعتبر ما يقوم به سيشكل نهاية لألمه فقط إنما باباً لحريته، لخلاصه. بالتأكيد كان هذا هو الأمر.

كانت سارة تملك روحاً قويةً. عندما وصلنا إلى نيويورك كانت لغتنا الإنكليزية التي بالكاد كنا نستعملها في ميامي ضعيفة. في الحال، وبعد أقل من خمس عشر يوماً حصلت سارة على مقابلة في شركة طبية بموجب عقد من عمدة المدينة، تأخذ فيها على عاتقها العناية بالمواطنات الإناث لمواجهة خطر السيدا. كانت مكاتب هذه الشركة تقع في مستشفى بيل ـ فو Bellevue. قدّمت سارة المقابلة باللغة الانكليزية أمام إحدى السيدات الطبيبات التي غدت بعد

ذلك صديقتها والتي اعترفت لها لاحقاً بأنها لم تفهم تقريباً شيئاً مما كانت تقوله. لكنها عيّنتها في الوظيفة لحسّها الوجداني العالي، وابتسامتها الدائمة، لأن الكثير من المريضات كنّ من جنسية إسبانية، وبالأخص لأنها امتلكت الجرأة الكافية للتقدم إلى هكذا مقابلة دون أن تكون ملمّة باللغة الإنكليزية. دون شك، هذا ما كان يلزم في هذا الزمن، أشخاص بهذه الطباع كي يقاوموا الوباء الذي أضحى الأكثر وحشية منذ القرون الوسطى، والذي خلال تلك السنوات، كان يحصد الناس مثل الذباب.

كانت سارة تتمتع بنزعة استقلالية ومزاج معتدل. لم تكن قوتها تعتمد على حقيقة أننا نعجب بها أو نصفق لها. بل كانت عائدة للخلايا العصبية نفسها، لجيناتها، لطفولة دون مشاكل تذكر - اللهم عدا العنف الوحشي في السياسة الذي عاشته وهي في مدينتها الأم - وأيضاً للحب والعاطفة غير المشروطة التي كان لها الحظ في تلقّيها دوماً والتي جعلتها منفتحة دائماً على ما كانت ترغب. لكن حتى هذا بدوره كان يأخذ طريقه إلى الموت.

باختصار... هنا في لاميزا والذي اسمها الكامل هو «لاميزا ديجوان دياز La Mesa de Juan Diaz» كانت تعتني بأشجار الحديقة الخارجية مرتدية قفّازات، وجزمة عالية من المطاط، وقبعة أكوادينو[9] (التي يسمونها في بلد آخر الباناما) بينما كنت أعتني أنا بالشجيرات المعروضة في الداخل وفي الفناء. كنت أنا من يزيّن

---

[9] أكوادينو: قبعة من القش منشأها الاكوادور.

الفضاء الداخلي للمنزل بنباتات الأزاليا ذات اللونين، والسراخس، والليليكونياس، والبروميليا، والبيغونيا، وأيضاً بالنباتات المعربشة على بعض الجدران والتي كانت تتلقى ما يكفي من الضوء، كما كنت أعتني ببعض الرسومات والمنحوتات، بعضها مقدّم من الأصدقاء، والبعض الآخر من أعمالي الخاصة التي لم أرغب إطلاقاً بالتفريط بها، وكذلك بالأثاث الذي جلبناه من نيويورك، وكذلك الأثاث والمصابيح التي اشتريتها من عند تاجر الأثريات في بوغوتا. لطالما أحببت البحث عن الانسجام في الأجسام المحسوسة، ولم أتوقف يوماً عن الاندهاش من الطريقة التي تستعيد فيها الحياة عندما ندرك مساحة الضوء. بفضل الضوء، لن تعد الأشياء جامدة بل تصبح أشخاصاً ممتلئة حيوية مثلها مثل النبات ومثل أي كان.

كنت على وشك الاتصال برقم جاكوبو وبابلو في بورتلاند عندما رنّ الهاتف الثابت وأجابت سارة. بدا وكأن المتصل إحدى الناقدات من بلجيكا. كانت تتهيأ لكتابة كتاب تتناول فيه حياتي ولوحاتي وترغب في معرفة إن كان بإمكانها المرور غداً بعد الظهر كي تتحدث معي وربما البقاء ليومين بيننا. أجابتها سارة دون أن تتردد للحظة أنني الآن في كولومبيا وسوف أعود بعد شهر. ودون أن تستشيرني، حددت لها موعداً لاستضافتها في الأسبوع الثاني من الشهر القادم في الساعة الثالثة بعد الظهر، بينما أنا، كنت قد ألغيت بالهاتف قبل بضعة أيام من ذلك كل التزاماتي المهنية، ولم أعد أرغب على الإطلاق بكل هذه الأمور. أظهرت لها بإشارة واضحة أن لا رغبة لي في الحديث مع أي شخص كان، ولا رؤية

أي شخص قادم من بلجيكا في أي يوم من أيام السبت ولا في أي شهر من الأشهر القادمة.

– سوف يلهينا هذا قليلاً عن أمور أخرى، وسوف نكون بحاجة إلى هذا الأمر، قالت لي وهي تغلق السماعة، زيادة على ذلك - أضافت زوجتي - هي بدت لطيفة.

ولم يكن لدي الشجاعة لأذكرها بأني لا أستحسن أن يقرر أحد ما غيري هذه الأمور.

الفصل الثامن

ذهبت لأجلب الطعام لكريستوبال الذي كان يتمسّح بقدميّ منذ فترة، كان قط أبيض مع عينين صفراويين وبقعتين سوداويين على ظهره، وأذن سوداء، كان مثيراً للإعجاب، وناعم الملمس ككبّة من القطن. قط سعيد. حصلنا عليه عندما كان صغيراً جداً، عاش أربع عشر عاماً. الآلام الوحيدة التي عانى منها في حياته كانت آلام ما بعد التخدير عند الإخصاء، ومرة أخرى حين دست على قدمه، ومن ثم آلام الموت التي لا مفرّ منها. الغريب في الأمر أني مازلت أشعر بوجوده يجوب الأنحاء حتى هنا في لاميزا.

كانت رائحة عجينة السمك المنقوع والطحين المخصص للقطط تثير بي الغثيان، كنت أتألّم من أجل كريستوبال الذي كان مجبراً على تناوله. عدت من المطبخ واتصلنا ببورتلاند. كانت المحادثة شاقة. سألت جاكوبو كم الساعة الآن عندهم، وأجابني أنها الثامنة عشرة والنصف، وبقينا بعدها صامتين. عدت لأسأل: والفندق؟ كيف هو؟ وأجابني أنه جيد، مثله مثل باقي الفنادق، أليس

كذلك؟ سألته كيف حاله، وأجابني جيد، وغرقنا مرة أخرى في الصمت، عدت فسألته عن آلامه فأجابني أنها في هذه اللحظة قوية جداً، لكن بابلو يتجهّز كي يقوم له بالتدليك. ثم أعقب ذلك فترة صمت طويلة. عاد ليقول: سوف أمرر لك بابلو، وبعدها سوف أتحدث مع أمي، موافق؟ قبلاتي، أبي، سنتحدث لاحقاً.

لم تكن المحادثة مع بابلو أقل سهولة. سألته عن الساعة التي سوف يصل فيها الطبيب فأجابني عند الرابعة مساءً ـ الأمر الذي كنت أعرفه تماماً، لكنني لم أجد سؤالاً آخر لأطرحه ـ (كان لديه القليل مما يمكن أن يقال في كل مرة). بدا الصمت يطوق الحياة بلا هوادة. سألته إن لم يكن قد وجد صعوبة في إعادة سيارة الفان وأجابني أن لا.: سأمرر لك ماما قلت له، وبدأ الحديث على نحو سلس معها وعاد ليشكل لي لغزاً كما في المرات السابقة. رأيت عيني سارة تلمعان دون أن يتهدّج صوتها، وهما يغرورقان بالدمع. فقررت أن أخرج قليلاً.

كنت ملزماً للتوقف عن الكتابة لفترة طويلة، بالرغم من العدسة المكبرة التي كنت أعمل بها، لأني لم أعد أستطيع تمييز الكلمات. ومع ذلك كتبت بأحرف كبيرة، كانت أحرف العلة تأخذ حجم حائط من جبال الأنديز. عندما يغيب نظري، وهذا ما كان يحدث في كثير من الأحيان، أستلقي وأطلب من أنجيلا المرأة التي كانت تأتي لتساعدني في المنزل، أن تتلطف وتضع لي كمّادة رطبة على عينيّ وجبهتي، وأركّز على صوت العصافير أو أختار بعض الموسيقى. من كل أنواع غناء الطيور، كان صوت عصفور الدوري هو الذي يشدني أكثر.لم يكن عصفور الدوري في هذه المقاطعة من نوع

عصافير بلوجاي الذي في الولايات المتحدة: فهو أصغر منه بكثير، زقزقته حادّة جداً، ومعبّرة للغاية، ومربكة قليلاً، كما في موسيقى بوتشيلّو[10]، التي يُخال إلينا أن نغمتها تصبح في بعض الأحيان عالية جداً، ومن ثم يصبح اللحن بالكاد مسموعاً للأذن البشرية. لم تكن تلك الموسيقى ساحرة لكنها معقدة. وبمجرد أن يصبح التسجيل عالياً جداً لم نعد نعيره الكثير من الانتباه ونصغي بالمقابل إلى العصافير ذات الغناء الأكثر دنيوية، خاصة العصافير الصهباء الضّاجة أو عصافير الدوري، الذين هم أكثر ثرثرة على الأرض. يمكن أن يقال عنها أنها نقيق الهواء، تماماً كما الحمام هي آفة الطيران.

عندما أصغي للموسيقى ـ وأنا أسمع منها الكثير ـ تكون على الأغلب معزوفات على الغيتار، مثل أعمال رودريغو، باريوس، تارّيغا، أشياء من هذه الأنواع، أو أيضاً (الناي السحري) لموتزارت، أو مقاطع من السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، التي لم تزل تبهرني مذ سمعتها للمرة الأولى منذ ستين عاماً. عموماً، في المستقبل الذي ينتظرني، سوف لن أعد أتمتع بالتأكيد إلا بضوء الأصوات، وضوء الذاكرة، والضوء الذي دون شكل، لأن نظري ينحسر بطريقة لا يمكن معالجتها. وبالنسبة إلى أيامي القادمة، أعتقد أنه لم يزل ينتظرني الكثير منها نظراً لحالة طول العمر لدى أفراد الأسرة، فالعديد منهم كان قد بلغ التسعين عاماً وأكثر.

أجهل تماماً إن كانت تلك الكّمادات الباردة على عيني وجبهتي ذات فائدة معينة، لكن كان يجب أن أفعل شيئاً ما، وحتى هذا

---

[10] بيتشلو: آله نفخ موسيقية من الخشب صغيرة الحجم.

الوقت، كان هذا يريحني. المرض الذي أعاني منه، هو ما يعاني منه كبار السن، أو بمعنى آخر هو استحالة اللطخة الصفراء. بالرغم من القول أنه من غير الشائع أن تؤدي هذه الحالة إلى العمى الكلي، إلا أن التدهور السريع لرؤيتي كان يشير لغير ذلك. تبدو العدسة المكبرة ضرورية عندما نفقد الرؤيا في الجزء الأوسط من العين. منطقة الضمور البقعي تعادل تقريباً خمسة بالمائة من شبكية العين وتغطي ثلاثون بالمائة من مجال الرؤيا. الستون بالمائة الباقية، أي المنطقة الطرفية لم تتأثر بالمرض. لذلك فالعدسة تساعد في التعويض إلى حد معين عن الآفة البقعية، لأنها تسمح باستخدامٍ أفضل للشبكية السليمة التي تحيط بالمنطقة المصابة كي تخلق صوراً محسوسة. عندما أنهض، وقبل أن أبدأ مجدداً في العمل، أخرج إلى الفناء كي أتأمل للحظة النباتات والأشجار.

تبلغ مساحة الفناء الذي وراء منزلي ستمائة متر مربع تقريباً ـ وبما أننا نتحدث عنه فسأتابع وصفه ـ يحتوي على عدد كبير من الصور المحسوسة، فالحديقة التي أنشأتها سارة كانت مثيرة للنظر، فهي ممتلئة بأشجار النخيل من كل الأجناس، كما من الكرز والليمون ومن كل أنواع أزهار يليوكينوس ومن السراخس والأوركيديا، ومن كل الأنواع التي لا يمكن تخيلها. أصبحت حبيبتي سارة وخلال عشر سنوات فنانة كبيرة في زراعة النباتات، هنا في لاميزا دي جوان دياز، كنت فيها أنا جمهورها، ورسّامها المنذهل بلوحاتها الحية. لكن من الآن وصاعداً، أصبح زوج أنجيلا هو من يهتم بالحديقة، وبحسب ما تسمح به رؤيتي، كان يعتني بها جيداً، لكن تحسيناتها توقفت، وكذلك الحال بالنسبة لتطورها

وتحولها للأفضل أيضاً، فالحجارة في السابق كانت تبدو مغطاة بالطحالب، والأحواض غنية بأزهار اللوتس وأنواع أخرى من الزرع، تلك النباتات النادرة التي كانت تعرف سارة كيف تجدها والتي كانت تعطي الشعور بالتفتح فجأة، بصورة آنية كما لو أنها ألعاب نارية.

عندما أفكر بهذا، وأشعر بغياب سارة وبالبرودة الذي ترافق هذا الغياب، وحتمية عزلة الشيخوخة، أضطر أن أستلقي للحظة، وأطفئ ذهني لبعض الدقائق كما لو كنا نطفئ شمعة وننام.

الفصل التاسع

قاطعت سارة وهي تتحدث مع الأولاد كي أقول لها أني سوف أخرج وأعود بعد ساعتين تقريباً، ولتتصل بي إن هي احتاجت لشيء. أجابتني أن الأمور بخير، وأن باستطاعتي الذهاب فهذا سيريحني قليلاً، لكن على ألا أغيب لفترة طويلة. قبّلتها، وعادت تتحدث من جديد مع الولدين.

نزلت في هيوستن كي آخذ القطار المتجه نحو كوني أيلاند. بدت لي عتمة النفق مرعبة، مقطورة القطار منفّرة، وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص الذين يدخلون ويخرجون.

بقي نظري مثبتاً على الأرض كي لا أرى أحداً، حتى مضت ساعة وبعض المسافة من الطريق، فنزلت في برايتون بيتش. سرت عبر الشارع دون أن أنظر إلى شيء ولا إلى أي كان، حتى وصلت ساحة من الخشب. رفعت نظري وإذا بالبحر أمامي.

لم يسبق لي أن بكيت بسهولة، وهذه المرة لم يكن الأمر مغايراً. كان هناك مركبين شراعيين صغيرين بلون أبيض كما لو أنهما

نوارس تسبح على صفحة الماء بهدوء، ولون الماء أزرقٌ في عرض البحر وأخضرٌ داكن قرب الشاطئ حيث تتدحرج الأمواج التي كانت تأتي بعد ذلك لتنشر غطاءها وزركشاتها على الرمال.

كان هناك أناس على الشاطئ، يهرولون بخطوات سريعة أو يسبحون. رفيقان في العشرين من العمر يرميان كرة إلى كلبة لابرادور سوداء فتهرع نحو الماء وتسبح كالفقمة، تلتقط الكرة وتعود لتعطيهم إياها. بالرغم من عدم حبي للوحات الحيوانات، أقصد الثدييات منها، بيد أني، وأمام هذا المشهد، تخيلت لوحة حيث ترمي كلبة فيها نفسها في الماء الزمردي، وتسبح للبعيد حتى تغدو مجرد لطخة من الحبر الأسود كما في الخط الياباني. لا يوجد حيوان سعيد أكثر من لابرادور على شاطئ البحر. ومع ذلك فلا أنا نجحت في السيطرة لمدة أطول على بكائي الذي انبثق كما من الأرض وأرغمني على الجلوس، ولا في احتجاز الدمع القاسي كما الشظايا المتناثرة، يجري بارداً، على صفحة وجهي.

خلعت حذائي، ورفعت بنطالي، وضعت قدماي في الماء، ومشيت لعشرات الدقائق فوق الرمل القاسي، حتى الشعاب المرجانية التي توجد مواجهة أمام دولاب شيكاغو الموجود فعلياً في كوني أيلاند.

مشيت بحرص فوق الصخور الحادة حتى وصلت للخط الذي يبدأ فيه الماء يختلط مع السرطانات. كان للسرطان لون الحجر، وبدت حركاته وكأنها قد بثّت الحياة في الصخور.

بقيت، ولمدة طويلة في السابق، آتي كي أراقبهم على أمل رسم بضعة لوحات زيتية أو كي أقوم بمنحوتات حول موضوع الضوء

والحياة المتداخلة وسط هذه الصخور البنية والخضراء. نظرت إلى ساعتي، كان الوقت قد تجاوز الثانية عشر والنصف ظهراً. يبلعنا الزمن كما لو كان يُفرّغ فوقنا أحجاراً أو آجرّ.

عندما عدت إلى البيت رأيت الجميع على وشك استقبال «بريتي» الذي جاء لرؤية جاكوبو كما عادته كل يوم جمعة. كان بريتي من السيخ، وهو سائق سيارة الأجرة التي كانت تقلّ جاكوبو يوم الحادث، ومنذ ذاك الوقت لم يتوقف عن المجيء لرؤيته كل يوم جمعة. كان لديه لحية طويلة رمادية، وعمامة نيلية، كما لون قميصه وبنطاله، عيناه واسعتان ولامعتان، ونظراته لطيفة و ودودة إلى أبعد الحدود.

عندما يأتي، كان يتوجب علينا الجلوس لاستقباله، وتقديم الشاي له، والبقاء هكذا صامتين تقريباً إلى ما يقارب الساعة من الزمن. بين حين وآخر كان يسأل «كيف أحوالكم، يا ناس؟» بتلك اللهجة الغنائية للهنود التي كنت أحبها كثيراً والتي كان من الصعب عليّ فهمها، وكنا نجيبه أننا بخير شكراً، وأنت؟ ويجيب بريتي: وأنا أيضاً، شكراً. ثم يتبع ذلك فترة طويلة من الصمت حتى يعود مرة أخرى للسؤال: «And,how are you doing,folks ? إذن، كيف حالكم، يا ناس؟».

بعد يومين من الحادث، دخل علينا وقدم نفسه في المستشفى في غرفة جاكوبو وقال:

- هللو، أنا بريتي.
- عفواً، من؟ سألته سارة.
- أنا الذي كنت أقود سيارة الأجرة سيدتي. أنا جد آسف،

حقيقةً جد آسف.

يصادف أن تحدث أشياء غريبة في حوادث السيارات ومنها حادثة جاكوبو. فعندما اصطدمت شاحنة الحشاش المخمور بتاكسي بريتي حولتها إلى كومة حديد في جزء من الثانية، ومجرد بقاء جاكوبو حيّاً يُعدّ معجزة، لكن الأغرب من ذلك هو أن بريتي لم يصب بأي أذى، حتى ولا بأي خدوش. أستطيع الجزم أن حتى عمامته الرائعة لم تتحرك من مكانها، ولهذا السبب بالتحديد، لا بد وشعر أنه مُدان، لكن من الصعب جداً التأكد من هذا الأمر لأن الحوار معه بدا معقداً كما ابتساماته ونظراته المُحبّة التي تظهر بسهولة.

– بريتي تعني الحب، في اللغة البنغالية. أضاف قائلاً.

– آه، نعم، وهي تلفظ أيضاً مثل كلمة «جميل» في اللغة الإنكليزية.

ابتسم سائق التاكسي لهذا الإطراء الجميل.

– تماماً سيدتي، تماماً.

جلسنا، وغرقنا من أول جلسة في الصمت الذي خيّم حوله، والذي برغم مرور الوقت، لم نستطع التعود عليه أبداً. كنا نراه خلال فترات الصمت، يصفن دوماً مع بعض القلق بما سوف يقول.

– نحن السيخ، من الموحّدين. كان يقول فجأة، وهنا لم تكن سارة تجد أي تعليق مناسب كي تنطلق بالحوار مرة أخرى.

– هذا غير معقول كانت تقول!

كان بريتي يبدو مع جاكوبو أكثر انشراحاً. فقد حمل له عاطفة كبيرة، وهذا لم يكن بالأمر الصعب أو المستغرب نظراً لشخصية هذا الأخير. بين وقت وآخر كان يربّت على كتفه أو حتى يقول له «يا

ابن العفريتة» أو تعابير أخرى من هذا النوع، والتي كانت تمثل بالنسبة إليه منتهى الصداقة والاسترخاء. بالطبع كان هذا يحدث عندما كان يزوره في غرفته ويكون وحيداً معه. وإن صادف ووصلنا أنا وسارة فجأة، كان سائق التاكسي يعود فوراً إلى أقصى درجات الودّ والمجاملة.

– هللو سيد دافيد، هللو سيدة سارة، كان يقول بلهجته الغنائية بالنسبة لنا، ولكنته الجميلة البنغالية.

عندما عدت من كوني آيلاند، كانت ديبرا، جيمس، فينوس، أرتورو، سارة وبريتي في الصالون. كان السائق بالطبع لا يعرف ما الذي على وشك الحدوث في بورتلاند. قالت له سارة أن جاكوبو وباولو قد ذهبا في نزهة عند بعض الأصدقاء في ميامي. كان الجميع ـ عدا بريتي ـ شاحباً بسبب قلة النوم. جيمس الذي كان في العادة ثرثاراً، احتفظ بالصمت، وكذلك ديبرا التي لم تكن من النوع المتحفّظ في العادة. كان جيمس وديبرا أصدقاءنا منذ وصولنا إلى نيويورك. لم يكن لديهما أطفال، ويمكن القول أنهما تقريباً تبنيا أطفالنا. سلّمت على بريتي وجلست كي أنظر إليه كما كنا نفعل جميعاً. كان يبدو كأنه «غورو»[11] جالس على كرسيه: بعمامة نيلية اللون ولحية تصل حتى الفخذ، وعينان ذات رشقات نارية مجنونة تقريباً.

قال فجأة دون سابق إنذار: البنجاب هي أرض البحيرات الخمس.

---

[11] Gouru: تعني في اللغة الهندية: المعلم أو الإمام عند السيخ.

أشارت لي سارة بأنها تريد التحدث معي.

اعتذرنا منه ودخلنا إلى المطبخ، فأخبرتني أن الولدان قد اتصلا بها للتو كي يخبراها أن الطبيب لم يكن باستطاعته المجيء إلى الفندق في الساعة السابعة مساءً، وأنه سوف يحاول الوصول في الحادية عشر ة ليلاً، وهكذا فقد تأجل كل شيء لمدة أربع ساعات.

بعدها بقينا صامتين، وقبّلتها.

أضافت قائلة: لن نعلم إطلاقاً إن كان هذا الأمر حسن أم سيئ ديفيد. وتنهدتْ ثلاث تنهيدات دون صوت، وأردفت خائفة: يا إلهي، والآن؟ ماذا إن لم يأتي؟

الفصل العاشر

دخل جيمس وديبرا إلى المطبخ وعانقنا بعضنا البعض. لا أستسيغ هذا الدفق العاطفي الجماعي، لكن شعرت بأنه أراحني هذه المرة . ومن ثم، فهما أمريكيان ومختلفان عنا بالكثير من وجهات النظر، كانا دون شك أفضل أصدقائنا، ويجب علينا احترام كل ذلك، بالرغم من شعوري قليلاً بالضيق.

ديبرا وجيمس لم يزالا معاً، كان زواجهما ـ بعد زواجنا ـ هو أطول ما عرفت من بين كل الزيجات. كانا يتصلان مرة كل أسبوعين كي يطمئنوا علينا. لكن منذ موت سارة، منذ عامين، لم يعودا يأتيان إلى لاميزا بسبب التقدم بالسن، الذي فيه تصبح المطارات والسفر بالطائرات نوع من التجربة المفزعة.

كان يبلغ من العمر خمس وسبعين عاماً، وهي سبعون. في المرة الأخيرة التي اتصلا بي أخبراني أنهما يفكران هما الاثنين بالذهاب إلى دار المسنين، بعبارة أخرى إلى دار العجزة، الشيء الذي أرعبني بالطبع ، لأن هذا كان يعني بالنسبة إليّ البدء بشمّ روائح بولنا كما

بول الآخرين ليل نهار، ويوماً بعد يوم، منتظرين ساعة الموت. لكني لم أقل لهما شيئاً.

كانت ديبرا زميلة لسارة في مستشفى بيل ـ فو، ومن هنا تعرفنا عليهما. كان جيمس محامي يساري، وهذا الأمر يعني في الولايات المتحدة أن معظم زبائنه من الفقراء، وأنه بالكاد يكسب أكثر منهم بقليل.

وضعنا جيمس على اتصال مع أحد أصدقائه المحامين في بورتلاند، وكان مختصاً بهذه الأنواع من الحالات، وأقصد حالة جاكوبو، والذي كان سيساعدنا إن لم تجر الأمور بشكل حسن: بما أن جاكوبو لم يكن مقيماً في أوريجون، لذلك فهو لا يملك الحق بهذا النوع من المساعدة، في الواقع كان الطبيب، كما بابلو وجاكوبو، سيتصرفون كخارجين عن القانون، وقد يجدوا أنفسهم في ورطة لا يحسدون عليها. هذا المحامي هو من نصحنا بألا نقوم بالسفر معهما، فقط الولدان، فمن شأن هذا أن يجذب انتباه وأنظار الكثيرين، وهذا ما كان سيعرضنا للخطر. رفضت سارة الخطة بالطبع، حتى أنها بدت غاضبة وراحت تبكي، لكن في النهاية رضخت للأمر.

فاتني أن أشير أن جيمس كان في الحقيقة يكسب أقل من موكليه، لأنه عندما لم يكن لديهم المال، كان يقدمه لهم أو يهبه دون توقيعٍ سندات، ولولا أن ديبرا لم تعارض بشدة لكان قد وهب مالها أيضاً.

في إحدى المرات ذهبت إلى محكمة مانهاتن كي أراه وهو يعمل، وصادف أنه كان يدافع عن إحدى مدمني المخدرات من أصول

لاتينية والتي، خلال المحكمة، همدت ببطء لتغفو على كتفه.

كانت المرأة قد سرقت مالاً من أحد الجيران كي تستطيع أن تشتري المخدرات وكانت قادرة على بيع أولادها للحصول على القليل من الهيروين. كان القاضي وهو يتكلم يشير إلى جيمس بألا يدع تلك المرأة تنام، فراح يعدّل من جلستها، ويرفع لها رأسها وأجفانها كي تستطيع النظر إلى القاضي وهيئة المحلفين، وهذا ما كانت تفعله للحظات، بأجفان نصف مغلقة، قبل أن تعاود الانهيار ببطء، وتغلق عينيها نهائياً، لتتكئ من جديد على كتف جيمس.

كان جيمس بديناً، ضخماً وأسود اللون، شديد الذكاء، طيباً كالخبز. وكانت ديبرا تنحدر من أصول إيرلندية، من أوهايو، هذه المرة قد عيناها شديدتي الزرقة، صغيرة الحجم، وحيوية جداً، وديناميكية وسريعة مثلما هي رزينة.

أثارت قضية المدمنة وصديقي الشفقة لديّ كما الاحترام، احترام عميق لجيمس. لم أعد أذكر البتة كيف كانت نهاية هذا الأمر، إن كانت المتهمة قد وُضعت في السجن أو في مكان آخر. الصورة التي بقيت في ذاكرتي كانت عن المحامي البدين، لاعب الكرة السابق في جامعة ميسيسبي، والمدمنة الهزيلة التي كانت ولابد جميلة ومشرقة في يوم من الأيام كما فينوس، وهي تتكئ شبه غائبة عن الوعي على كتفه.

عدنا نحن الأربعة إلى الصالون وكان بريتي لم يزل هنا، يتحدث بحماس مع أرتورو حول مهنة كرة السلة. عندما رآنا قام ونهض من جديد كي ننظر إليه.

– ديانة السيخ هي أقدم الديانات في العالم، قال بعد لحظات.

هذه المرة، فينوس هي من علقت على هذا الكلام، فقالت: هذا مذهل!

دخلت أنجيلا لتسألني إن كان كل شيء على ما يرام وإن كان بمقدورها هي وزوجها الذهاب .

- الغداء في المايكروويف، قالت. ولا تحاول التفكير يا دافيد بالذهاب إلى الفراش دون تناول الطعام.

لم تكن هي وزوجها يعيشان هنا إنما في منزل صغير، تماماً عند مشارف القرية التي تدعى كاشيبي. كل يوم، كانا يقفان قرب الحديقة المركزية، ليأخذا واحدة من تلك الحافلات الصغيرة التي تصعد على طول المنحدرات الرائعة المحاطة بأوراق الشجر فوق ذاك الطريق الإسفلتي، لكن المليء بالحفر، المؤدي إلى القرية.

ذهبتُ عدة مرات لزيارتهما في أيام الآحاد آخذاً بدوري تلك الحافلة الصغيرة عوضاً عن السيارة مع السائق، لأن أجواءها كانت تعجبني. فجميع من في الحافلة كان يتحدث مع الجميع كما لو كنا في نزهة ولسنا في الطريق ضمن وسيلة نقل عامة. المشكلة الوحيدة كانت اضطراري للانحناء بشدة وأنا فيها، كما أني لم أكن قادراً على مدّ ساقيّ بين المقاعد. كانت الملكية الصغيرة تعجبني بدورها أيضاً، بمزارع القهوة ذات الثلاث هكتارات تقريباً، والمظللة بالبازلاء الحلوة الطعم، وبأشجار مختلفة من الأكاسيا الأنيقة جداً والمعروفة باسم «بيسكين»، ومنزلهما ذو الخشب المضغوط، وطلاءه المحافظ عليه على الدوام: جدران بيضاء، سقف أحمر من الزنك،

قواعد سفلية من نفس فصيلة اللون الأحمر، أبواب ونوافذ حمراء هي الأخرى. كنت أشرب فنجاناً من القهوة على المصطبة متأملاً الأشجار، ثم أتناول طعام الغداء، أنام قليلاً في السرير المجهّز لي، ومن ثم أعود. لكن لا أعتقد أنني سوف أعود للذهاب مرة أخرى كما كنت أفعل، في الحافلة الصغيرة، لأنه مع بصري الضعيف، أصبحت أفتقد للكثير من الثقة أثناء التنقل بهذا الشكل.

– غداً سوف أتولى أمر الأوراق. قالت لي أنجيلا

الصفحات التي كتبتها، نحيّتها جانباً، مرقمة، في علبة الغسيل التي أحتفظ بها جانب المكتب. وبما أني كنت مجبراً على الكتابة بخط كبير، فقد ملأت الكثير، الكثير من الأوراق التي كانت أنجيلا ترتبها عندما لم تكن تثبت في الصندوق، ثم تضعها في أكوام من مئات الصفحات، فوق طاولة كنت أستخدمها في السابق لأعمال الرسم والنقش. كانت الطاولة جميلة جداً وهي على هذا الحال، ممتلئة بأكوام من صفحات مكتوبة بحبر بلونٍ توتي كنت أجهزه بنفسي، وهو اللون الذي يروق لي. كان يوجد هناك منذ بعض الوقت، الأكوام الثلاثون التي كتبتها عن بدايات ذكرياتنا أنا وسارة، تحديداً، عن الخمس سنوات الأولى السعيدة جداً، وبنفس الوقت المليئة بالمنازعات التي تصاحب كل تلك الأطنان من الهورمونات التي كانت لم تزل تجري في عروقنا. في الوقت الحاضر، بدأت تأخذ تلك الهورمونات مكانها في الصفحات المخصصة لجاكوبو. استخدمت للكتابة ورق خاص، أكثر سماكة من المعتاد كان مخصصاً للنقش، لأني أحب الشعور والإصغاء للحفيف

الصادر عن هذا النوع من الأوراق، وعن الريشة الأكثر فخامة لقلمي المون ـ بلان التي قدمته لي سارة هدية في أحد أعياد الميلاد.

لكني كنت أرغب أحياناً لو أستطيع العودة إلى الرسم. ليس إلى تلك الرسومات الحزينة التي كنت لم أزل أنفّذها من طرف عيني عندما قررت هجر الرسم كي أبدأ بالكتابة، إنما إلى اللوحات الضخمة، كما في السابق، والتي كان العالم كله يتمثل فيها.

الفصل الحادي عشر

طلبنا قطعاً من الدجاج المقلي وحساءً بالشعيرية من أحد المطاعم، وبالرغم من عدم تناولنا طعام الغداء إلا أني لم آكل إلا القليل من الحساء ونصف قطعة الدجاج التي كنت أمضغها كما لو أنها من المطاط. حول الطاولة، كنا نتبادل التعليقات حول زيارة بريتي التي كانت بمثابة الحدث الصعب. كنا نحبه لهذا السبب كنا نشعر بالارتياح بوجوده. علّقت فينوس قائلة أن العمامة البرتقالية اللون كانت تليق به أكثر من العمامة النيلية التي كان يضعها دوماً.

– هللو، أنا بريتي، قال أرتورو وهو يغني تقريباً، نحن السيخ لا نعترف بالنظام الطبقي.

بالأمس جاءوا كي يلتقطوا لي صوراً هنا، في بيتي في لاميزا. لم أفهم إن كانت هذه الصور لأجل مجلة فنون هندسية معمارية أو ديكور داخلي، لأن الشابان ـ شاب وفتاة ـ الرقيقان هما الاثنين،

تجولا في المنزل كله وهما يلتقطان صوراً لكل ما هو ثابت أو متحرك. التقطا لي صورة وأنا في مكتبي ممسكاً بعدستي المكبرة وبقلمي الموت ـ بلان. كانت العدسة متألقة، بحجمها وشكلها المربع، لأنها كانت محاطة بإطار أسود وتهيمن على الطاولة بفضل ذراع مفصلية مثبتة بملزمة. جعلوني أيضاً آخذ وضعيات قرب شجيرة الفيكوس المتعربشة التي تكاد تقريباً تجتاح جدران قاعة العرض الداخلية.

أصبحت من الآن فصاعداً، أشبه إحدى شخصيات النحات البيرتو جياكوميتي، لأني كنت كل يوم أزداد نحافة بالنسبة إلى طولي كما كانت أنجيلا تقول، ويبدو شكلي وكأنه آخذٌ في التبخر والتحول إلى روح بحتة. أو لنقل أنه كان آخذاً في الابتعاد أكثر فأكثر عن أشياء هذا العالم، ليباشر الاقتحام في الموت، الذي لا وجود له، وفي هذا العالم الذي لا حدود له، والذي نعيشه في الواقع. لو كنت لم أزل أستطيع ممارسة الرسم لكنت رسمت صورةً شخصيةً بالحجم الكبير حيث أظهرُ فيها كظل فوق نبتة متسلقة، أبدية، وقوية بشكل خاص، كما لو أنها مصنوعة من الحجر أو المعدن.

غير الفنان جياكوميتي،

كان الفنان دييغو، أخ ألبيرتو، هو من رسم لوحات رائعة لمفروشات من البرونز. طلبت مرّة نسخة لإحدى تلك الطاولات الزجاجية التي ترتفع فوق هيكل شجيرة من ثلاث قوائم، من

البرونز، مع بومة واقفة على أحد الأغصان. قمت بالسفر لأجل هذه اللوحة حتى ميدللين، حيث يعيش ابن عمي أنخيل، واحد من أكبر مدمني الكحول، والذي كان مع ذلك يشتغل هذا المعدن أفضل من أي شخص آخر. تطلّب منه هذا العمل عامين كاملين، بما أنه كان يتوجب عليه دخول المستشفى بشكل منتظم بسبب تسمم شبه مميت من الأغواردينت[12]، لكن في نهاية المطاف كانت النتيجة ممتازة، والطاولة موجودة الآن في غرفة الصالون، بالقرب من إحدى الكنبات الجلدية التي جئنا بها من نيويورك. عندما مات أنخيل، بعد ذلك بحوالي ثلاث سنوات، ذهبت إلى ميدللين ورأيته، كان شديد النحول، بلحية مشذّبة بعناية، يرتدي ربطة عنق، متخلّصاً من المعاناة الرهيبة التي يعاني منها مدمني الكحول عادة، وهو في نعش بسيط، يحيط به الأزهار. رسمت لوحة صغيرة لجثته، طافية كما أوفيليا فوق سطح بحيرة من الأزهار البدائية تقريباً، بحيث لم يكن باستطاعة أحد أن يعرف أنها من أعمالي لشدة الواقعية في رسم الأزهار.

بقي الشابان حتى ساعة العشاء. تناولا الطعام ومن ثم غادرا في حدود الساعة التاسعة مساءً. في وقت من الأوقات كانت كل تلك القصص من الصور والمقالات والأسئلة اللانهائية عن عملي تسبب لي اضطراباً بغيضاً، خاصة أثناء فترة الثلاث سنوات الطويلة لآلام

---

[12] أغواردنيت: مشروب كحولي في أميركا الجنوبية.

جاكوبو. كان يجب عليّ أن أقوم بمجهود كي أجيب على هذه الأنواع من الأسئلة حول عملي الذي كان يبدو لي كريهاً جداً. ولولا إصرار سارة لكنت ببساطة قد أغلقت أبوابي، وقطعت صوت الهاتف، وليكن ما يكن. لكن في تلك الأيام لعب الترويج دوراً مهمّاً في عملية بيع أعمالي، دوراً ضرورياً جداً بسبب طريقة حياتنا مع جاكوبو. لاحقاً، عندما أصبحت أتمتع بشهرة أكثر وبدخل أفضل، بدأت فقط أقبل بالمقابلات التي تثير اهتمامي، والتي أستطيع من خلالها أن أقول أشياء مهمة بالنسبة لي.

اليوم، ومع التقدم بالسن، أصبح هذا الأمر يمتّعني ببساطة فقط، وأصبحت أحتفظ ببعض الشباب الذين كانوا يشاهدون أعمالي، ويطرحون عليّ أسئلة، ويظهرون اهتمامهم بحديقة سارة وبأشيائي الصغيرة الأخرى.

حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، نمنا لبضع دقائق، وعند استيقاظنا، مارسنا الجنس ونحن على الجانب، متعانقين وجهاً لوجه بشدة، بشكل وصلنا فيه إلى التواصل المطلق في اللذة كما في المصيبة. لم أعد أذكر كم مرة مارسنا فيها الجنس أنا وسارة خلال كل تلك الأعوام الماضية، أعتقد أنها آلاف المرات وبألف حالة وحالة من الأحاسيس المختلفة، خلال فترات السعادة أو لحظات المقت التي كنا نعيشها آنذاك، وفي كل مرة كانت أكثر تميزاً من المرّة السابقة، كنا نمارس الجنس دوماً وكأنه لأول مرة. نمنا مجدداً، ودوماً متعانقين، متداخلين الواحد بالآخر. عندما

استيقظنا، بعد نصف ساعة تقريباً، سمعت صوتاً آتياً من المقبرة، غناء حاد لنوع من البلوجيز. وعلى مسافة أبعد قليلاً، جاءت من الشارع شتيمة قبيحة بصوت أجش كما الحشرجة: «مهلاً، أنت، أيها السفيه!».

في إحدى المرات سألت جاكوبو عن حياته الجنسية مع فينوس، فحكا لي أنه في المرة الأولى التي نجح فيها في القذف، كان الصداع والألم بين ساقيه شديداً جداً بحيث فقد وعيه. مع مرور الوقت، بدأ هذا الألم الجسدي يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى اختفى نهائياً. كان مرض جاكوبو في مستوى «T 10» مما يعني أنه مشلول تماماً بدءاً من الفقرة العاشرة الصدرية. مازلت أحتفظ بمعلومات لا بأس بها عن الروابط في النخاع الشوكي منذ سنوات دراستي للطب، إلا أنني قمت أيضاً بالبحث على الانترنيت وفي المكتبات. إلى جانب أنه كان لدي مصادر أخرى للمعلومات ألا وهي ميكائيل أونيل، الفتى الشاب صديق جاكوبو الذي كان مغرماً بالشرح حول المسائل الطبية.

– جزء فقط من المرضى المصابين بخلل في النخاع يعانون من آلام عصبية معروفة تماماً مثل، بين قوسين، آلام وهمية. كان يقول ميكائيل، في الواقع، كانت تفيد التقارير أن أغلبية المرضى المصابين في الحبل الشوكي بمعدل 65 %، كان من بينهم حوالي الثلث، يعانون آلاماً شديدة قد تصل، كما في حالة جاكوبو وحالتي، حتى الآلام المبرحة. ويجب الأخذ بعين الاعتبار سيد دافيد، أن هذه

الآلام لا علاقة لها بالأوهام، إنها آلام حقيقية، وأحياناً يصل الأمر إلى عذاب لا يحتمل، كما لو أن أحداً قام بغرز منشار على مستوى جسمك ووضع قدميك في محرقة. هذا غير محتمل، ألست على حق، جاكوبو؟

«أنت محق بروفيسور أونيل، كان جاكوبو يجيب، وميكائيل يبتسم».

جاء ميكائيل هذا اليوم حوالي الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، لم يتحدّث كثيراً، وبقي لبضعة دقائق فقط. قد يكون جاكوبو قد أطلعه على قراره، وربما كان هو ينتظر أن نخبره بما يجدّ. سألنا إن كان جاكوبو في المنزل ولكن دون اقتناع، ولم يعطِ أية أهمية لأي تفصيل لما كنا نقوله حول رحلته، أي سفره مع بابلو إلى ميامي.

الفصل الثاني عشر

في الساعة الرابعة والنصف، عادا فاتصلا من جديد وقالا أن الطبيب سيتأخر أيضاً، ولن يصل قبل الساعة الحادية عشر ليلاً أي في السادسة صباحاً بحسب توقيتهما المحلي. قالا ذلك إليّ دون أن يضيفا أية تفاصيل أخرى، ثم أغلقا الخط بسرعة لأن جاكوبو انتابته نوبة أخرى من الألم الشديد جداً وأخذ بابلو يتجهّز لتدليكه، ولم يتحدثا مع سارة.

«قل للماما ألا تقلق فهذا الطبيب دقيق جداً، سوف يكون هنا في السادسة، دون أي تأخير، قال لي بابلو».

لم تنطق سارة كلمة واحدة، اكتفت بأن شدّت يدي بقوة، وبقي نظرها للحظات طويلة مثبّتاً على الأرضية.

– وماذا إن شعر بالندم؟

– الطبيب؟

– لا، جاكوبو.

لم أعرف ماذا أقول، ولم أعرف كيف أفكر، ولا بماذا أشعر. لم

يكن أحد منا يرغب بموته، لاهي ولا أنـا، ولا أي شـخص كـان، والحيـاة تتشـبّث في هـذا العـالم بطريقـة مفرطـة. حتـى الصرصـور يتشبّث بشقوقه، والعشب بصدعه الطولي على الرصيف أو الصخرة العارية.

– بهذا التأخير... البغيض جداً، أضافت سارة.

اقتربتُ من النافذة. في الأسفل، فوق أحد القبور كان هناك تمثال للسيدة العذراء وهو في حالة مـن السـلام العميـق. لـو كنـت مؤمنـاً، فكرت، لذهبت في الحال إلى أي كنيسة، لأعترف، حتى ولـو أنـي كنت أجهل بماذا، وأصلّي. وكما لو أني كنـت أتمنـى رؤيـة إلهـي الحارس، فقد فكرت أن أنذر له بعض الأرانب، أو أهديـه الكـثير من دخان البخـور الكثيـف، أو أضـع أمامـه الفاكهـة، أو أقـدم لـه أزهاراً. لكن لم يكن هناك وجود للسيدة العذراء في حيـاتي ولا لإلـه حـارس. لم يكـن هنـاك وجـود بالنسـبة لـي سـوى الغيـوم، وتلـك الحمـائم الـتي مـرّت للتـو، وهـذه الأشـجار، وذاك الفـراغ الغـير متجانس، وهذا الفضاء الـذي لا يمكـن أن نعـيّن حـدوده، وشـجرة الورد المزهرة هذه، وهذا الغنـى المخـادع الـذي لا يمكـن وصـفه مـع الزمن، المتناغم بلا كلل، وهو في حالة الفرح كما في حالة الرعب.

– كل شيء سيجري بشكل حسن، كل شيء سيكون بخير.

– أتعتقد ذلك؟

جيمس وديبرا كانا قد ذهبا لسقاية النباتات، ولتغيير ملابسـهما في منزلهما الكائن في منطقة أبعد قليلاً ناحية الشـمال، عنـد حـدود برودواي وشارع 25، وسوف يعودان لقضاء الليل معنا.

كانت فينوس قد خرجت، جميلة جـداً بلباسـها الأبـيض، كـي

تعتني بمريض في المنطقة العلوية، في الجانب الشرقي. وكان أرتورو يعمل في بعض الليالي كفنّي صوت في نادي روك فخم، في نادي بوبيري. قرر أنه من الأفضل الذهاب كي يموّه قليلاً، وكان على وشك أن يأخذ دشاً قبل الخروج. كانت الساعة لم تزل الخامسة بعد الظهر.

لكن الزمن يمرّ كالعجلة وفي كل دورة كان يسحق العظام أكثر فأكثر.

أرسلت سارة تستدعي شقيقاتها وأشقّائها. كان لديها ثلاث شقيقات وشقيقين قد أصبحا تقريباً أصلعين، يبلغان حوالي الثلاثين عاماً، بينما ظهرت شقيقاتها، بالمقابل، وكأنهن لم يزلن يحتفظّن بشعرٍ أشقر كثيفٍ، ومتماوجٍ، ولامعٌ وهو في كامل عافيته. بدوّن وكأنهن يشبهن المرأة المرسومة من قِبَل أربع فنانين مختلفين، ومع ذلك متماثلين. تتدرّج الألوان من القرفي، مثل سارة، وصولاً إلى الأسمر المائل للسواد مثل لون جسم أختها البكر التي كانت تترك شعرها الأسود والمتموّج يسترسل على كتفيها. أُعجبت دوماً بأخوات زوجتي كما بإخوتها، بحبهم للحياة، وحسّهم الفكاهي، وخاصة بقدرتهم المكتسبة للعواطف. «لتكن قوقعتك قاسية جداً لتسمح لك أن تكون بمنتهى الرّقة» على حد قول الشاعر، وكان هذا القول ينطبق على كل واحد منهم. كانت الأخوات بالطبع يعجبنني بسبب جمالهن أيضاً، وغالباً ما كان علي أن أكون حريصاً على عدم النظر إليهن بشهوة أو معانقتهن بالصدفة مثلاً، كما لو كنّ سارة. مازالت اثنتان منهن على قيد الحياة، أرملتان تعيشان في

مـالي، ولم تـزالا جميلـتين. أتصل بهمـا مـن وقـت لآخـر وأشـعر بالحنين، لأنه كان يُهيأ إليّ أني أسمع صوت سـارة، الأخ الأصـغر لم يـزل أيضـاً علـى قيـد الحيـاة. كـان الحـوار صـعباً مـع إخوتهـا وأخواتهـا، الـذين لم يكـن لـديهم أي فكـرة عمـا هـو علـى وشـك الحدوث. اتصلت بهم سارة، واحـد بعـد الآخـر، والحـديث نفسـه كان يتكرر في كل مرة. حاولتْ أن تقوم بالدعابات المعتادة، لكن مع بذل مجهود، والتقطتُ اللحظة حيث الطرف الآخر من الخـط كـان يسألها إن كان كل شيء على خير ما يرام، قائلين لهـا أنهـا تبـدو غريبة الأطوار اليوم. أجابت سارة، وصوتها علـى وشـك الانكسـار، أن كل شيء بخير برغم عدم افتقارنا للهموم ـ بالطبع كـان المقصـود حالة جاكوبو ـ بالإضافة إلى الآلام الفظيعة المعتادة، أنـت تعـرفين، كانت تجيب، لكـن كـل شـيء علـى مـا يـرام، كـل شـيء سـوف يتحسّن. فلا يجب أن يقلقوا، وهي سوف تتصل بهم وتحكي لهـم. ثم قالت: إلى اللقاء، إلى اللقـاء، يجـب أن أذهـب إلى العمـل. نعـم بالتأكيد، سوف اتصل في الغد. نعم، نعم، سأتصـل، سأتصـل، إلى اللقاء.

الفصل الثالث عشر

- غادر الجميع. جلست سارة على كنبة، وأنا، كنت أتأمل الماء في لوحة المعدّيّة.

لاحقاً، بعد خمس عشر دقيقة، نهضتْ، وارتدت قفازها المطاطي الأصفر، التقطت زجاجة منظف الأجاكس وذهبت لتفرك البانيو وبلاط الحمام. (كانت ديبرا معجبة دوماً بالطريقة التي نلفظ بها كلمة (أجاكس) باللغة الإسبانية، وغالباً ما كانت تطلب منا نطقها. كانت تقول: «هذه الكلمة تدوّي كما لو كانت ضربة فأس». سمعتُ سارة وهي تخلع ثيابها، وسمعت كيف غطست في الماء. لديّ حاسة سمع قوية جداً فيما يخص حركات سارة كلها. لو كنا في ظروف أخرى لكنت دخلت غرفة الحمام للتحدث معها، والنظر إليها، لكن هذه المرة، قدّرت أنها تريد البقاء وحدها.

كانت تسألني في كل مرة وأنا أتلكأ في الخروج من غرفة الحمام، وأبقى هناك، أتأمل بكثير من الإصرار نهداها اللذان لم يزالا مرتفعان وصلبان بالنسبة لسنها (لنقل أن هذا ممكن فقط لدى النساء

ذوات الأجساد الداكنة اللون) بطنها المسطّح مع خط حزين من تجعدات صغيرة من كل جهة، كانت تبدو لي جميلة جداً، على الأخص عانتها الرائعة والمثالية والتي كان يظهر منها ظلٌ شبه غير ملحوظ لزغب يصل حتى السرّة ومن ثم إلى قسم الغموض الذي كان يفتنني. كنت أخرج من تخيلاتي وأجيبها ببراعة:

– أنا لا أنظر إليك، أنا أتأملك بإعجاب كما ترين.

– يا لسخافتك!

لحسن الحظ، كنا في فصل الصيف، وكان النهار طويلاً. ففي الصيف نتوهّم في بعض الأحيان بأن اليوم أزلي. لم أكن أرغب بحلول الليل، لأنه يتوجّب عليّ عندها أن أقرّ بأن الزمن يتقدّم، وكذلك الحياة القاسية التي تمزّقنا بتروسها ومسنناتها الحادة، وحده الضوء، لا يمكن أبداً الإمساك به، فهو سرمدي، كنت أرغب بالنظر إلى ذاك الماء الممزوج بفوران محرك القارب ولمسه، لكنني لم أتوصل لمعرفة كيف يمكنني إظهاره كلياً، بمعنى آخر، إظهار الضوء الذي يحتوي الظلمات والموت، والذي كان بدوره مُحتوى من قبلهما.

رنّ الهاتف الثابت، لم أرغب في رفع السماعة. فالأولاد لا يتصلون إلا من الهاتف المحمول، لم تكن لدي رغبة في مواجهة كائن من يكون للحديث عن مهنتي. من الأفضل انتظار خروج سارة من الحمام ولتتكفل هي بالأمر. تابع الهاتف رنينه وفي اللحظة التي صرخت بي سارة ساخطة، من غرفة الحمام بأن أجيب، حباً بالله، فالهاتف لن يعضني، توقف الرنين. عندما خرجت وهي ترتدي ثوب الحمام، بتموجات شعرها الرطب، ورائحة الصابون،

عاد الهاتف ليرن من جديد.

كانت تلك أختها البكر، التي بقيت مشغولة البال. تفاجأتْ، ظاهرياً، أن سارة هي من أجاب، فقد اعتقدت أنها في العمل، وعلى هذا السؤال أجابت سارة أنها متوعكة وقررت عدم الذهاب إلى العمل. «إنه الكريب، بالتأكيد. نعم، نعم. طبعاً جاكوبو بخير، سبق أن قلت لك أنه بخير؟ لا... لا. دافيد خرج من لحظات». أكّدت قائلة، وأشارت إليّ بألا أصدر أي صوت، فهي تعلم تماماً أني لا أعرف كيف أكذب (فاشل تماماً في الكذب) ولا تريد أن تجازف بإعطائي الهاتف.

تابعت حديثها مع أختها مجيبة على أسئلتها: نعم رأسي يؤلمني، وأشعر بدوار. أنا في السرير، تشاو. سأتصل بك؟ كيف؟ حسن جداً، نعم بالطبع، لكني سبق أن قلت لك أن الجميع بخير؟ تشاو، تشاو.

أرخى الليل العديم الشفقة سدوله، اجتاحت العتمة المقبرة في الأسفل، والسماء أصبحت زرقاء قاتمة.

في نفس هذه الساعة، هنا في لاميزا، تبدأ الخفافيش بالدوران حول ذاتها على الأشجار. خفافيش هذه المنطقة من النوع الصغير الحجم ولديهم طريقة بريشة بالطيران، تشبه طريقة الفراشات. يتغذون بأكل الموز والماندارين.

خرجت من باب المشغل الخلفي كي أتفرج عليهم ـ أو لنقل كي أشعر بهم، لأني لم أعد أراهم البتة ـ جالساً على كرسي ينطوي، كتلك الكراسي التي لمخرجي الأفلام، مع قدح من البيرة جلبته

أنجيلا قبل ذهابها وقدّمته لي بكأس تحتفظ به دوماً في جهاز التجميد. خلف الأشجار تمتد الهاوية التي تطير فوقها النسور خلال النهار كله. كانت دوماً هذه الساعة من اليوم هي الأصعب بالنسبة إلي منذ زمن لم أعد أذكره. كان هذا هو الحال في نيويورك، حيث كنت أخرج لاحتساء كوب من الشراب في صمت في أحد تلك البارات الهادئة. هنا كنت أشعر بالطبع بجمال هذه الساعة، بنورها المتلاشي، وتواجد الخفافيش الذي كان يبهجني، لكن أحياناً، كان الحزن يهبط مع الغسق ويثقل عليّ. «ها قد عدت من جديد للإنطوائية» كانت تقول سارة عندما كانت تراني أشعل أول سيجارة بييلروخا، وأقدم لنفسي كأساً من الروم أو البيرة التي أشربها كل يوم، وأبقى غارقاً بأفكاري لوقت طويل هنا في هذا المكان، تحت سقيفة المشغل. بالرغم من أني لا أُصنّف تماماً كشخص رومانسي ولا شاعري.

كان ذاك فعلاً هو أكثر ساعة من اليوم أشتاق فيه لسارة، حيث كان غيابها يعذبني.

«هيا، هيا، أنت بهذه الحال دافيد، سوف تتحول إلى رجل رومانسي» هكذا كانت تتهكّم علي قائلة: «أحياناً، بالكاد تجعلني أتنفس!».

دخلتْ المقبرة في الظلمة، والسماء، أصبحت زرقاء قريبة من السواد.

الفصل الرابع عشر

مشيت حتى إحدى الحانات الموجودة عند أحد زوايا متنزّه

توبكيز، عند تقاطع الشارع رقم 7 والجادة ب، حيث كانوا قد صوروا مشاهد لأحد الأفلام الشهيرة نرى فيه إعدام رجل بدين.

لحسن الحظ لم يكن هناك الكثير من الزبائن والتلفاز كان مطفأً. طلبت تاكيلا وبيرة. جلست على طاولة تواجه المشرب، حيث كان عامل المشرب يتلوّى في كل الاتجاهات.

قرب النافذة، كنت أرى شجر الدردار في المتنزّه، مضاءً بنور المصابيح، وبعض الأشخاص يتنزّهون مع كلابهم.

لطالما أذهلتني كلاب نيويورك، فقد كانت من الأنواع المشوّهة لدرجة فقدانها للصفات الطبيعية، حسنة التربية للحد الذي نحسبها أحياء ـ أموات، فهي لا تسحب مقودها من يد صاحبها، ومن النادر أن يركض أحد منها خلف سنجاب، أو حتى يلقي فقط نظرة عليه (لا نقول يفكر بقتله فهذا غير ممكن ولا بالأحلام)، أو تبدأ بالركض في محاولة لصيد الحمام. حتى في بعض الأحيان، كان

سيدهم يمشي أمامهم وهو من كان عليه جرّ الكلب. كنت أودّ أن يسألني أحد عن هذا الموضوع خلال أي مقابلة ـ صحفية كانت أو تلفزيونية ـ كي أستطيع في النهاية أن أوضح لهم رأيي حول الاختلاف بين كلاب البودل المدجّنة النييوركية، وتلك الذئبة المدجّنة الكولومبية، أو أي نوع من كلاب أمريكا اللاتينية. لكن لم يفعل أحد ذلك. وعوضاً عن هذا فقط كانوا يمطرونني بأسئلة مملّة والتي كان فعلاً يُصعب الإجابة عليها حول هذا الموقع أو ذاك، أو حول هذه الحداثة أو تلك.

توقفت عن النظر إلى الكلاب وشربت التاكيلا دفعة واحدة. عدت لأفكر، مشدوهاً، بما سوف يحلّ بنا، وبما هو على وشك الحصول معنا، وشعرت كما لو أنني أتفتت من الداخل، كان كذكرى ضربة قوية، قوية جداً، كنت قد حذفتها منذ زمن طويل من داخلي. شربت كأسي البيرة. «الحياة حلم مرعب». وأنا أكتب هذه الجملة، فكرت في كاتدرائية ساغرادو فاميليا في برشلونة، كم بدا الكابوس الذي صممه المهندس المعماري جميلاً. كما فكرت في (حديقة المسرّات الدنيوية[13]). لم يكن يوجد شيء من هذا بالنسبة لي، في تلك اللحظات، وأنا في تلك الحانة. لا هلع فنّي، ولا جمال، ولا تناغم. في تلك اللحظة، في هذه الحانة التي أعدموا فيها الشخص المسكين البدين، الشيء الوحيد الذي شعرت به، هو عقدة مخيفة تلتف حول رقبتي، وكتلة ثقيلة وراء عيني، مطوّقة بجدار من البيتون أو الحجر.

---

[13] هي لوحات دينية للرسام الشهير هيرونيمس بوش عام 1503.

كانوا يسمون هذا المكان (هورس شو)، كما هو الحال في لوحاتي الكئيبة التي تمثل سرطان حدوة الحصان[14] والتي ستغدو مشهورة مع الزمن.

عدت للمنزل واتصلنا بالأولاد. قال لي بابلو أن جاكوبو قلق جداً بشأن تأجيل موعد الطبيب وهو يعاني من آلام مبرحة، وقد نام بعد جلسة تدليك طويلة زائد أربعة أقراص منوّمة كفيلة بطرح ثور. كان بابلو يتحدّث إلينا من صالة استقبال فندق الهوليداي - إن كي لا يجازف بإيقاظ أخيه، أو كي لا يسمع هذا الأخير ما يقول. عندما سألته إن كان يعتقد أن لدى أخيه شكوكاً، أجابني أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الموضوع، وأن هذا أمر محتمل بالطبع، لأن جاكوبو كان قد بقي صامتاً بعد أن تحدث إلى الطبيب في المرة الأخيرة، ولم يعد يفتح فمه إلا كي يشتكي من ألمه.

- هذا غير محتمل، بابا، قال لي بابلو. لكن حسناً، هذا مفهوم، أليس كذلك؟ ومهما يكن قراره، فمن الواجب علينا احترامه.

حوالي الساعة التاسعة، وصل أرتورو وصديقته الصغيرة آنبر. كنا أنا وأرتورو نتشابه بكثير من الأمور عدا هذا الشيء. فعلى الرغم أن لا خلاف بيني وبينه كونه زير نساء حقيقي، إنما عندما يكون مع امرأة فهو يخلص لها، إلا أنه امتلك العديد منهن. ثلاث نساء على الأكثر، إذا ما عددنا من آنبر وصولاً إلى لقائه مع هذه الفتاة الحالية ستيلا، والتي هو معها منذ ما يقارب الثماني سنوات. لكن، حسناً، فهذا أكثر مما كان لدي من النساء على أي حال. كانت آنبر تدعى

---

[14] سرطان بحر يشبه حافر الحصان.

في الحقيقة ماريا، أو شيء من هذا القبيل، وغيرت اسمها لاسم آخر أقل تفاهة. كانت فائقة الجمال. أقصر قليلاً من ديبرا، لكن لم يكن يعيبها هذا في شيء، إلى جانب كونها يقظة جداً، وذكية جداً. كانت تضع تسع حلقات من الفضة بيضاوية الشكل أحياناً في كل أذن، واحدة عن كل عام يمضي، كانت شفتاها مطليتان بقلم أزرق مائل للسواد، كما طلاء أظافرها، تضع خواتم من الفضة في كل أصبع من أصابعها، وتنتعل جزمة جلدها مقلّد لجلد التمساح، وقمصان من الحرير الأبيض، وسترات وصدّار وسراويل من الجلد، كل هذا كان في فصل الشتاء. أما في الصيف فكانت تضع السلاسل الفضية في كاحليها، وترتدي تي شيرت لهياكل عظمية سوداء، وسراويل منفوخة سوداء وصنادل ذات ألوان فرحة، أو شفافة من المطاط، وكل هذه الأمور كانت من النوعية الجيدة، بما أنها كانت تنحدر من عائلة ميسورة، وتعيش مع أهلها في ويست فيليج. بعد بضعة أشهر من بلوغها الثامنة عشر، السن القانوني للاستقلالية، قامت بوشم كتفها، وذراعها، وأعلى ظهرها، بعشرات الورود بلون أحمر قاني، كل تلك الأنواع المختلفة التي كنا نعرفها هنا تحت باسم «سيسيليا»، مساحتها حوالي 2 سم في القطر، مع بعض الأوراق والأشواك. في إحدى المرات قمت برسمها في حضورها وقلت لأرتورو في الإسبانية، إن آنبر تبدو كتحفة فنية صغيرة نستطيع وضعها على الكونسول، وهو، يا لحماقته!

ترجم لها دون أي تردد ما قلت:

«My dad says you look like a little piece of art to be put on a shelf».

لم تغضب، بل أستطيع أن أجزم أن ذلك أسعدها، بل أكثر من ذلك، شعرتْ وكأنه إطراء لها. بالطبع قمت بالعديد من الرسومات الأولية لآنبر بقلم الفحم، وأيضاً سلسلة للعديد من المنحوتات بماء الفضة التي كنت راضياً عنها تماماً، وخاصة أني كنت قد شعرت بمتعة هائلة وأنا أقوم بها، وقد نجحت تماماً في التعبير فيها عن الإعجاب الذي شعرت به نحو جرأتها وابتكارها.

فضلت دوماً إنجاز أعمالي الأكثر تعبيرية بالنحت، أو بقلم الفحم. لسنوات وسنوات، بقيت أقلّد لوحات لرامبرانت طالما فُتنت بها. نجحت في تقليدها بشكل جيد، وكانت سارة، كي تتملّقني تقول إن نهايتي سوف تكون في السجن كمزوّر لوحات. مازلت أحتفظ بالبعض منها، كلوحة قربان أضحية إسحاق، لكنني بعد ذلك قمت بتحطيم غالبيتها. أفضّل استخدام الزيت لرسم اللوحات الكبيرة الحجم، والتي تكون أحياناً شبه مجردة، كما لوحة المعديّة المجردة بالكامل، وكذلك الأمر بالنسبة لدراسة الضوء والماء التي نفذّتها في كي - ويست أو في خليج نيويورك، ومن ثم من فوق قمم لاميزا وما يحيطها، والتي هي دون شك الأضخم والأكثر أهمية من بين أعمالي، أو لنقل الأكثر تعبيرية بدل كلمة أهمية.

– هللو عزيزي، قالت سارة، حسنا أرتورو، ألم تذهب إلى العمل؟

أجابها أنه غير قادر على التركيز، فقرر العودة ليكون معنا، وحلّ أحد الأصدقاء مكانه.

انسحب أرتورو وآنبر إلى الغرفة، وأغلقا الباب، كعادتهما، لكن هذه المرة لم يتناهَ إلى سمعنا لا ضحك، ولا تهريج، مما كانا يمارسان

في العـادة، ولا صـوت مـداعباتهما الـتي كانـت أشـبه بمـداعبات الأطفال منها إلى الأمور الجنسية الجدية والحقيقية. يبدو لـي، هـذا المساء، أن أرتورو قد قضى وقته وهو يعزف على غيتـاره، ولابـد أن آنبر كانت تقوم بالدردشة علـى الانترنـت، أو ربمـا كانـت نائمـة، لأننا لم نسمع صوتاً يصدر عنها.

الفصل الخامس عشر

بدأت بتمشيط كريستوبال، كان أكثر الأشياء التي يحبها هذا القط في العالم، بعد الأكل والنوم، هو أن يقوم أحدهم بتمشيطه. كان الزغب الذي يبقى على الفرشاة ناعماً جداً، نظيفاً وأبيض، بحيث كنت أقول دوماً لسارة أنه يجب علينا الاحتفاظ به من أجل حشو الوسائد. هذه المرة تحاشيت إلقاء هذه الدعابة.

كان هناك الكثير من الدعابات والقصص التي كنت غالباً ما أكررها، ومن العجيب أن سارة لم تتركني بسبب قسوتي، فقد كنت أتعمّد أحياناً التكرار كي أغيظها:

– هل حكيت لك كم كنت سعيداً عندما ذهبت مع عائلتي إلى خليج موروسيكو؟

– حكيتها لي حوالي خمسمائة ألف مرة، فقط.

– أوكي، اشترى والدي بيت صيادين في تولا، مطلّ على البحر، وكانت العائلة بكاملها تقضي العطلات...

كانت سارة تغلق أذنيها وتصرخ «لا لا لا» كي لا تسمع ما

أقول. وإذا صادف وكان أحد الأولاد موجوداً، كان يقول لنا بلهجة شبه قاسية:

– أنتما فعلاً مجنونان، مجرد طفلين.

أسكت وأنتظر بصمت حتى تتوقف عن الصراخ وتكشف أذنيها فأتابع قائلاً:

– لم أكن أشعر بالسعادة ولا في أي مكان آخر، مثلما كنت أشعر هناك. كنت في السابعة من العمر تقريباً، عندما بدأنا الذهاب إلى هناك. كنت عندما أستيقظ، في صباح اليوم الأول، أسمع ضجيج البحر على الرمال وأشعر بفرح كبير بحيث...

وتصرخ سارة «آه لا .. لا» وتعاود إغلاق أذنيها وتصيح «لا لا لا لا».

ذهبتْ إلى المطبخ كي تسخن قطع الدجاج التي بقيت من الغداء، حمّصت الخبز، وجهَّزت الشطائر، ثم طرقت على باب الشابين كي تسألهما إن كانا يرغبان في الطعام:

– شكراً ماما، لقد ذهبنا عند ماكدونالدز قبل المجيء إلى هنا.

يحاول أرتورو أن يجيب بطريقة مهذبة هذه المرة. لو كنا في مناسبة أخرى لأضاف قائلاً «هذه القمامة القذرة» كي يسخر مني، خاصة أني جعلت من مقاطعتي الخاصة لماكدونالدز مسألة مبدأ.

حلّ في المنزل صمت غادر، وعميق، واستمر حتى عندما كنا نتكلم أو نصدر ضجيجاً. بعد عامين من ذلك، عانيت من هذا الصمت، لكن بدرجة أكبر، عندما انهار البرجين في نيويورك. فقد رأيناهما ونحن على الشرفة، ينهاران ثم يختفيان، بعد أن تحولا إلى غبار ودخان ورائحة حريق. هذا الصمت الذي تحدثت عنه

تسلل داخل صرير العجلات عند منعطفات قطار الأنفاق، إلى داخل أصوات الناس في المطاعم، إلى الحركة المملة للمرور عند شارع كانال ستريت، في هدير القطارات والسيارات وهي تسير على الجسور، وحتى في أصوات سيارات الإسعاف نفسها، استولى هذا الصمت على الجميع وكان يمكن الاعتقاد أن ضوضاء مدينة نيويورك، الحيوية مثل غابات الأورابا، قد غُزيت من الداخل وهُزمت للأبد. بالطبع لم يكن الأمر كذلك، وهو لم يكن يوماً كذلك بطبيعة الحال.

لم أتخيل نفسي يوماً أثني على الضوضاء.

- يجب أن تأكل، حتى ولو لم تكن تشعر بالرغبة في ذلك، قالت لي سارة عندما جلبت لي الشطائر والسلطة. تكاد عظامك تبرز من وجهك.

أكلت شطيرة وسلطة، دون أي شهية، شربت كوبان من «باتيدو دي تريغو»[15] التي سبق لسارة وتعلمت تجهيزه من الكوبيين القاطنين في ميامي. في العاشرة ليلاً. وصل جيمس وديبرا. اتصل ميكائيل أونيل واكتفى بالقول: «أتصل فقط كي ألقي بتحية المساء عليكم» حتى أنه لم يطلب التحدث مع جاكوبو «هل كل شيء على ما يرام، عندكم في المنزل، مستر دافيد؟» أجبته أن كل شيء على ما يرام ميكائيل، شكراً جزيلاً لك. قال إلى اللقاء ومن ثم أغلق السماعة.

ألقيت اليوم نظرة على هذه الصفحات التي كتبتها مستعيناً بعدستي المكبرة، خوفاً على القليل من ما بقي لدي من النظر.

---

[15] شراب كوبي مؤلف من الحليب والقمح المنتفخ والسكر والقليل من الملح.

صُدمت لاكتشافي كم أصبحت عاطفياً مع تقدمي في السن، عند حديثي عن سارة وعني مثلاً. كنت أميل نحو اختيار أفضل اللحظات، دون أن أدرك أني كنت في بعض الأحيان أجمّل صورة ما كان يُعدّ في بعض الأحيان من الأوقات العصيبة جداً، بالأخص، تلك السنوات التي قضيناها في بوغوتا والتي كانت معقدة للغاية، بسبب الأنانية التي لا ترحم للرجال الذين لا يزالون يافعين، والذين يطمعون إلى ما يسمى بالعبارة الطنانة «التحفة الفنية». كان على سارة أن تحمل على عاتقها مسؤولية البيت وثلاثة أطفال، خلال ما يقارب الثلاثة أعوام، بينما أغلقت على نفسي أنا كي أتصارع مع اللوحات التي كنت أبيعها مرة كل ألف سنة، بمبالغ تثير السخرية. بعد ذلك، بدأت تُباع بشكل أفضل وبأسعار جيدة، لكن حتى وإن لم يكن هذا هو الحال، أي حتى ولو لم أبع أي لوحة، لثابرت على العناد في عالمي حتى لو كان ذلك يعني الجوع والبؤس.

بدا الليل الذي على وشك أن يحلّ بطيئاً أكثر من الليل الذي سبقه. تحدثت سارة لفترة طويلة، ما يقارب الساعة تقريباً مع جاكوبو وبابلو. كانت تغلق ثم تعاود الاتصال مباشرة، أحياناً، كنت آخذ السماعة منها للحظات، وبسرعة أقول لهما إلى اللقاء. كانت تتحدث إليهما بصوت هامس، ليس كي تتحاشى أن أسمعها، بالطبع، لكن كانت تلك نغمة الأمهات التي تريح بها أطفالها، حتى اعتقدت أنها كانت تغني تقريباً لتهدئتهما، حيث بدأ صوتها يأخذ إيقاع الهدهدة «لا تولوا اهتماماً للأشباح يا ولديّ،

فالأشباح لا وجود لها. وليس هناك وجود للموت يا أولاد. جاكوبو سيبقى دوماً معنا، لا تخافا، لا تقلقا، ولا ترتعبا» هذا هو نوع الكلمات التي لابدّ وأنها كانت تهمس بها إليهما، أعتقد ذلك. ما الذي بإمكان الوالدة أن تقول غير ذلك؟ بينما أنا، الذي طالما فكرت بأنه لم يكن هناك غير هذه الحياة، وبفقدانها، كما قال الشاعر، سوف نفقد كل شيء، أحبس نفسي في الظلام في غرفتي، كي لا أسمع شيئاً، ولا أرى شيئاً لبعض الوقت.

ما زلت أشعر بالذنب لعدم قدرتي على تقديم العزاء للآخرين، وأشعر به أكثر عندما يكون هؤلاء الآخرين أولادي أنفسهم.

الزمن عبارة عن مادة غريبة. لم يعد أمامي إلا القليل من الساعات، بالكاد أحد عشر ساعة من الآن حتى مجيء الطبيب، والتي ستكون ساعات ثقيلة بالألم، كذاك الذي عانته كل أصدافي البحرية خلال ملايين السنين من العيش بوجودها على الشاطئ، بقيت ملايين من السنين، وفي الوقت نفسه كان كا ذاك الوقت عبارة عن ساعات ميتة وفارغة.

الفصل السادس عشر

ذهبت إلى بوغوتا كي أفحص عيني. اشتريت أنا وسارة عربة من تلك العربات الواسعة جداً التي يدعونها في اللغة الانكليزية ستيشن واغن Station Wagon، أوتوماتيكية، فخمة وذات نابض مزدوج ومقاعد مريحة جداً. كانت هي من يقودها، وهي من كان يرغب بالعربة الكبيرة لأنها كثيراً ما كانت تُحمّل فيها أكياساً من الأسمدة ومواد أخرى لأجل الحديقة. رأيتها أيضاً تُحمّل أحجاراً وقرميداً في تلك العربة الفخمة.

لم أقد سيارة إلا في ميامي، لاستحالة التنقل في مدينة لا يوجد فيها تقريباً أية وسيلة نقل عامة، وحيث كان يتوجّب عليٍّ الذهاب والإياب عدة مرات إلى «الكيز Keys» كي أرسم وآخذ صوراً. كنت أقود كسائق غير كفؤ، تعلّم القيادة وهو في الخامسة والأربعين من العمر: ببطء، ويديّ مثبتتين على المقود. في نيويورك كنت أتنقل دوماً بالقطار، مع كامل عدّتي، أو آخذ تاكسي، إن لزم الأمر.

عندما حصل الحادث مع جاكوبو، اشترى بابلو سيارة مريحة

ليساعده على التنقل. لا أقصد القول هنا أن بابلو انقطع عن حياته الشخصية، لكنه اتخّذ كل تلك القرارات آخذاً بعين الاعتبار العناية بجاكوبو. رفض مثلاً المنحة الدراسية التي قدمتها له جامعة ماساشوست، لكن عدم قبوله جاء من مبدأ رفضه لأي شكل من أشكال الابتعاد عن أخيه، واختار عوضاً عن ذلك دراسة السينما والتصوير في جامعة جيدة جداً لكنها أقل في المستوى، في نيويورك. في نهاية المطاف لم يغيّر هذا من الأمر شيئاً، كان كما تماثيلنا الضخمة المزينة والتي هي عبارة عن كائنات موهوبة، فقد نجح نجاحاً باهراً في عمله.

بعد غياب سارة (يا لها من طريقة مفرحة في تسمية الموت!) عيّنت ابن أنجيلا كسائق لدي، فإن أردت الذهاب إلى بوغوتا أو رغبت في جولة صغيرة في جيراردو ـ وهي مدينة دافئة، متداعية قليلاً لكنها لم تزل جميلة، على شاطئ بحيرة ماغدالينا، على بعد ست ساعات من لاميزا ـ كنت أذهب معه ومع أنجيلا. في جيراردو كنا نقيم دوماً في فندق خمس نجوم عند الزاوية، أنجيلا وابنها، كل واحد منهما في غرفة وأنا في أخرى. كنت أكنّ لهما الكثير من المودة، وكنت أُثار من رؤيتهما مذهولين لا بل مشدوهين قليلاً بكل هذا البذخ. يجب أن يُستخدم المال لشيء ما، هو الذي يبدو في جميع مظاهره، تماماً كما الشهرة، مثيراً للشفقة، ومنفراً من الناحية الجمالية وفي معظم الأوقات مثيراً للاشمئزاز.

طبيبي في بوغوتا ـ كما الحال لدى جميع الأطباء ـ لم يأتِ بجديد. كان يجهل لماذا حالة العمى لديّ تتطور بسرعة، بالرغم من أن نوع الضمور البقعي لدي ليس من النوع السيئ جداً. وعند سؤالي

له إلى متى باستطاعتي على الأقل الاستمرار في الكتابة، أجاب بأنه لا يعرف: وأني سوف لن أستطيع الكتابة عندما لم أعد أستطيع أبداً، وأنه يجب عليّ الكتابة مع الكثير من الضوء. كما لو أنني كنت مصرّاً القيام بذلك في العتمة! بالمختصر المفيد، وكما سبق وقلت: أنا لا أعرف شيئاً، أنت لا تعرف شيئاً، لا أحد يعرف شيئاً، والعالم ليس أكثر من شكل وإيقاع.

بعد المعاينة، التي كانت مرهقة كما هي دون فائدة، تناولنا الغداء في مطعم من العهد الاستعماري، وقمنا بنزهة بالسيارة في مناطق أخرى من وسط البلد. مدينة بوغوتا مدينة مكتظة، ليست جميلة بالضرورة، لكنها بالتأكيد حيوية، بيد أنها كانت قاسية جداً تجاه قاطنيها، كالآلة السيئة التزييت، لم أستطع تماماً أن أتبيّن هضابها، لكنني قضيت وقتاً وأنا أتنقل وأتأمل بإعجاب حقيقي كل تفصيل من تفاصيلها، ومن تفاصيل أشجارها، ومن رؤوسهم الضخمة والقريبة جداً، ومن نباتاتها التي كانت غالباً ما تأخذ هذا اللون الأزرق الداكن الفريد، شبه المعدني، وألوان سمائها المتغيرة دوماً، كما هو الحال اليوم مع الكثير من الأمور. كل هذا أصبح يتموّج الآن، يسيل، ويفرّ مني.

لديّ فعليّاً ثلاثة موظفين في خدمتي: أنجيلا، التي هي مدبرة المنزل وليست زوجتي، وهي ليست امرأتي، لكن المرأة التي من دونها لم يكن لشيء أن يعمل، ثم ابنها الذي هو سائق مهذار ومسلي في الخامسة والعشرين من العمر، والذي درس الإدارة الزراعية في كلية تقنية لكنه لم يتوصل أبداً في الحصول على عمل ضمن مجال دراسته. ومن ثم زوج أنجيلا، الذي كان يعمل

بستانياً، وكان متحفظاً ومخلصاً، ومُكلفاً بتصليح كل شيء لأن يديه كفيلتان بصنع الأعاجيب. بما أني كنت أدفع لهم مرتّبات جيدة، وبما أنهم أناس طيبون، كنت أعتمد عليهم لمرافقتي ومساعدتي عندما تحتجب الرؤيا تماماً عن نظري، عندما لم أعد أقشع غير الضوء، وأيضاً كي يتّصلوا بأبنائي بعد وفاتي، ليأخذوني إلى مقبرة لاميزا دي جوان دياز ويدفنوني قرب سارة، بمحاذاة إحدى شجيرات النخيل الموجودة هناك (كانت جميعها قد ماتت فعليّاً بسبب إهمال البلدية، لكنها لم تزل منتصبة، بجذوعها الضخمة دون عمود، كما لو أنها أعمدة أثرية قديمة) حين تحين ساعتي ويلمع أمامي النور السرمدي.

ها أنا أسمع تعليقات سارة بعد أن كتبت هذه التعبير: «ها هو الذي كان يلعب دور اللامبالي، يريدنا أن نتشارك في المدفن، ويرى مسبقاً كافة التفاصيل».

الفصل السابع عشر

- لماذا نأوي إلى الفراش إن كنّا لا نستطيع النوم؟ ومع ذلك

فهذا ما كنت أقوم به في حدود الساعة الحادية عشر مساءً. ما الذي بقي لي غير ذلك؟ من السرير، رأيت سارة أمام مرآة غرفة الحمام، وهي تدهن ساقيها بكريم اللوز، وتأملت مرة أخرى اللون الرائع لجسدها الداكن، وجمال ظهرها. لم يكن جسدها قد تغير مع التقدم بالسن. رنّ جرس الهاتف الذي كان معها في غرفة الحمام، ارتدت ثوب الحمام وأجابت، ومن ثم تحدثت طويلاً بصوت منخفض مع الولدين. كان صوتها عميقاً، بنفس لون جسدها، وبإمكانه أن يحمل درجات متفاوتة من تعابير الرّقة. أغمضت عينيّ، وتأمّلت الألم الذي عصف بداخلي في تلك اللحظة وراح يطبق عليّ كألسنة اللهب في لوحة الجحيم. تركت عينيّ مغلقتين لفترة طويلة، متأملاً المصيبة القاسية التي كانت تغلّفني، والصور التي كانت تصلني، كانت عبارة عن رجل في التاسعة والخمسين من العمر، لبق وذو هيئة ذكية ، ومع ذلك متحفّظ قليلاً، يمشي بخطوات مدروسة في الليل، كما لو أن لا شيء يحدث، محاطاً باللهب، في شارع مقفر في منطقة «لاور

إيست سايد». وصورة الرجل نفسه، محاطاً باللهب أيضاً، في منتزه إيست بارك عند الساعة السادسة قبل ظهر أحد أيام الصيف، ربما وهو على وشك أن يدخن، مستنداً على الدرابزين كي يتأمّل المضيق، وسط حمامات تسير على الأرض، ونوارس وغيوم تتطاير في الهواء.

لم تكن البليّة ثابتة، كانت متدفقة، متمايلة ومتذبذبة، ولهيبها كان أقرب إلى اللون الأزرق منه إلى الأحمر أو البرتقالي، يتحول أحياناً إلى أخضر فاتح مرعب، يعذّبك من الداخل، من جانب واحد في الجسم، أحياناً من الجانب الآخر، وأحياناً يعذّب الجسد كله وبقوة لا تُحتمل، حتى ترى نفسك تصرخ دون صوت كما لوحة الفنان الشهير مانش[16]، حيث رجل يطلق صرخة وهو فوق الجسر. لم يعد الألم الجسدي مستقرّاً، كما الوصف الذي كنت أقرأه هنا أو الوصف الذي كنت قد سمعته من جاكوبو أو المسكين ميكائيل أونيل. كان استخدام الصور البلاغية عندهما أقوى: «كما لو أن أحدهم يأخذ منشاراً ويبدأ بشطر حوضي ببطء، سيد دافيد». هكذا كان يقول ميكاييل، وأحياناً، كان كما لو أن قدمّي متجمدتان وفي الوقت نفسه يغطيهما حجر ملتهب، أصدقك القول؟ لا أدري إن كانت الحياة تُستحقّ أن تُعاش إن كنّا سوف نتألّم بهذا الشكل، ما رأيك أنت؟».

ولدنا جاكوبو كان يصف الألم الذي ينتابه بقوله: إنه كما لو أن أحدهم يقوم بوضع أصابع قدميه في مكبس. أو كمن يضربه بلكمات دون نهاية على معدته. كان الشابان في هذا الوصف، يصلان دوماً حتى أقصى حدود إمكانية استعمال اللغة نفسها، حتى النقطة التي

---

[16] فنان اشتهر بلوحته الصرخة.

يصبح فيها الألم «غير قابل للوصف» وهي الكلمة الوحيدة التي كان بإمكاننا لفظها قبل أن تختفي كل الكلمات ولا يبقى منها سوى الوحشية الصماء والبكماء للواقع.

ومع ذلك عرفت، وعرفنا جميعاً، الفرح، لا بل وحتى السعادة. التناغم في الحياة لا يمكن له أن يُمحى أو يتلوّث، ولا حتى في أسوأ أوقات الهلع. كان الفنان غويا يعلم ذلك، وحتى الفنان بوشيه. عندما ماتت سارة رغبت أنا أيضاً في الموت. وقطعاً لم أكن بعيداً عن الانتحار. في الأسابيع الأولى، فكرت في كثير من الأحيان أن أذهب إلى إحدى تلك المنحدرات الرائعة الضبابية الموجودة في الضواحي، كي أرمي نفسي في الفراغ. من أعلى صخرتين بعضهما فوق بعض. لابد وأن رجلاً في سنّي كان سيتكسّر ويتحول إلى ملايين القطع. كان لزاماً علي أن أرتدي بدلتي الأنيقة، تلك التي كنت أتلقى فيها التعازي، كما يليق برجل رومانسي على شاكلتي، وكان يجب أن أنتظر، وأنا بكامل أناقتي، وأنا ميّتٌ، وقذرٌ، ومكسّرٌ، الحلقة الضيقة جداً فوقي للطيور الجارحة التي كانت سوف تتبع آثاري قريباً.

خمسون عاماً من البهجة العائلية والفرح الروحي - أرى نفسي مضطراً هنا باستخدام اللغة، التي هي بطبيعتها فظّة، لأصف شيئين هما في أبسط وأنقى تجلياتهما ليسا أكثر من شيء واحد فريد - عشتها مع امرأة كانت قادرة أن تعيش الرقة والمتعة بنفس الطريقة التي تُبدع فيها إنشاء حدائق نباتات بليكونياس والسرخس والنخيل والشجيرات وأزهار سيبيتي كويروس[17]، وأحواض، ونباتات مائية.

لهذا لم تأتي من فراغ رغبتي في أن أرمي نفسي في الفضاء.

---

[17] زهرة مايو توجد في كولومبيا وهي زهرة بنفسجية اللون.

الفصل الثامن عشر

عندما دخلت سارة إلى السرير، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر وعشر دقائق. كنت قد قضيت وقتاً دون أن أفتح عيني على الإطلاق أتأمّل ألسنة اللهب في داخلي والتي بدت ـ أو ربما هي كذلك ـ أزلية. الزمن عبارة عن مادة مطاطة تتعلّق بالفرح أو بالحزن. استلقت سارة عارية، ملصقة ظهرها بي وأنزلت يدها على جنبها لتداعبني. لم أكن أنا من ولجٍ فيها، بل هي التي بدأت ورفعت بيدها قفاي كي ألج وأتقدّم عميقاً فيها. وهكذا أسري عن نفسي وتسري هي عن نفسها، ونجد الدعم لحبنا في هذا الألم.

حلمت أن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل وأن الولدين قد اتصلا. بقي ثمان ساعات أمام جاكوبو، هذا إن لم يضعف ويغيّر رأيه. لم يكن جاكوبو من النوع الذي يفزع أو يندم، لكن للحياة سلطة قد تقترب حدّ الجنون. عند ألف قدم تحت الأرض يوجد ـ هكذا قرأت في إحدى المرات ـ بكتيريا حيّة. أجبت على الهاتف وتحدثت مع جاكوبو الذي بدا وكأنه مسيّطر على دموعه، أو ربما لأنه كان قد بكى. لم يطلب مني أن أمرّر له سارة. بدا وكأنه

يريد أن يقول لي شيئاً ما، لي وحدي، ولا يعرف كيفية التوجه بالحديث. رأيت نفسي فجأة محاطاً من جديد بألسنة اللهب. هذه المرة كانت صورة رجل في التاسعة والخمسين من العمر، عند الظهيرة، مشتعلاً وصامتاً، على طول شاطئ إيست ريفر، ينظر إلى قارب البلدية، وهو ينقل القمامة المحشورة ضمن شبكة، محاطة بطيور النورس، مخلفة ورائها رائحة مريرة ومستمرة.

عندما استيقظت كانت الساعة بالكاد تقترب من الحادية عشر وخمسون دقيقة، والولدان لم يتصلا. كان جيمس وديبرا ينامان على فراش في الصالون، وفينوس في غرفة جاكوبو، وبقيت آنبر مع أرتورو وخلت أني أسمع صوت غيتار وضجيج لوحة مفاتيح الحاسوب. في هذه الليلة، لم تمرّ أيّ دراجة نارية من نادي هيلز أنجلز. كانت سارة مستلقية على ظهرها، عيناها مغلقتان، ويداها مضمومتان على صدرها، أبعدتهما عن بعضهما كي أضع يدي في الوسط. وها هي الأيدي الثلاثة تشكل قوقعة ناعمة، تنتقل لتعيد التموضع على بطنها، الذي كان يرتفع وينخفض تحت الغطاء، على إيقاع تنفسها. كانت قد ارتدت في وقت ما منامتها. لم تكن نائمة. من ناحيتي، كنت دوماً أنام عارياً، حتى هذا الوقت الذي أنا فيه عجوز وبالرغم من البرد، لأن المنامة كانت دائماً تفتل حولي، وتمنعني من الحركة وبالتالي من النوم. شدّت سارة على يدي دون أن تفتح عينيها، رفعت نفسي قليلاً كي أنظر إلى الساعة التي على منضدتها: إنه منتصف الليل. نعم، الآن كان منتصف الليل.

هنا في لاميزا قد يصادف أن يصبح الجو بارداً. جلب لي أولادي غطاءً كهربائياً سرعان ما أصبح من بين أشيائي المفضلة في المنزل. في البداية كان الحبل السرّي الذي يربطني كل الليل في المأخذ الكهربائي في الجدار يستفزني. حدث ذلك بعد موت سارة بالتأكيد، أصبح العالم كلّه بارداً بالنسبة إليّ، يقولون: إن كان المسنون يشعرون بالبرد الشديد، فذلك لأن جريان دماءهم تصبح أبطأ. من ثم لم يلبث الشعور القاسي للمأخذ الكهربائي أن اختفى. فكرت مع بعض السخرية أننا عندما نغدو عجائز، نعود لنصبح أطفالاً من جديد، وأن مسألة هذا الغطاء الكهربائي من أولى علامات العودة إلى دورة الطفولة، والعودة إلى الرحم الأكثر خصوبة، الذي لا اسم له. حالياً، أقول لنفسي إنه في حال استطعت بمعجزة ما أن أعود للرسم، فسوف أبدأ بالبحث عن هذا الصدى المطلق للدائرة عند رهبان الزن، إنما سأجعل موضوعها متجسداً حول الماء، والضوء، والأحجار التي رأيتها ذات مرة على نهر أبولو[18]، قرب منزل أنجيلا. أعتقد أني سبق وقلت منذ قليل أن الكلمات فظّة وخشنة! كانت الفكرة في رأسي واضحة جداً، حتى أنـي كنت قد أخذت بعض الملاحظات التمهيدية هذا اليوم، معتقداً أنـي لم أزل أستطيع أن أرسم هذه اللوحة. إلا في حال خانني نظري، فسأصبح بعيداً كل البعد عن النتيجة المرجوّة مع تلك الخربشات الأرجوانية اللون التي كانت تخرج بصعوبة من ريشة قلمي الحبر الذي قدّمته لي سارة. آخر مرة حاولت فيها تجهيز زجاجة حبر، ذهب كل

---

[18] مدينة صغيرة في كولومبيا.

شيء بالمائل، فكان لزاماً عليّ أن أطلب المساعدة من أنجيلا. أشرت إليها عن نسب الألوان فقامت بالأمر على خير وجه.

جلب لي أولادي أيضاً «بييريه باسك» كنت غالباً ما أضعها، بسبب مسألة البرد هذه. قالت لي أنجيلا إنها تعطيني هيئة جذّابة وأنيقة. أحياناً، أبدأ أشعر عند أنجيلا بهذا السلوك التعاطفي والمحبّ نحو كبار السن، لكن ربما هذا لم يكن أكثر من فكرة خطرت لي، نوع من التميّز. باختصار... ماذا يمكننا أن نفعل؟ توجد لوحتان شهيرتان جداً إحداهما تحت عنوان «صورة لرجل عجوز» والأخرى «صورة لامرأة عجوز» ـ لا يحضرني الآن اسم الرسام، اعتقد بأنه فرنسي الأصل ـ والذي أثّر بي في تلك اللوحتين، بالإضافة إلى روعة الرسم، هو التعبير على أن الرجل المتقدم في السن يفقد اسمه، فلم يعد «صورة السيد أرماند، أو صورة السيدة أرماند» أو مهما كان الاسم. بل مجرد اسم «عجوز» يصبح كافياً، للدلالة بطريقة ما عن الكائن البشري. أو ربما وصفٌ مثل: عجوز شمطاء، الأحفوري، السلف، المخضرم، المثانة المسنّة. لم يكن الأمر يفتقر لأوصاف، وكلها كلمات مهينة. الكائن البشري هو قرد ساخر بلا رحمة. عمّتي، «بيبا»، القرد الأنثى، الأكثر قسوة من أي شخص سبق لي أن عرفته، كان لديها نسيبتان عمياوتان منذ الولادة، ابنتي أختها كونشا، والتي كانت تنادي عليهما بـ: حولاوات كونشا.

بالنسبة لي كان لقب «العجوز الضرطة» يناسب ذوقي بشكل خاص، بالرغم من أن صفة «المثانة العجوز» لم تكن سيئة هي الأخرى. أما بالنسبة لصفة «الأحول» فهذا ما كنت سأصبح عليه مع مرور الزمن.

الفصل التاسع عشر

عند الساعة الثانية عشر والنصف ليلاً، نهضت سارة كي تتصل بجاكوبو وبابلو، وجاء القط كريستوبال إلى السرير. كان القط ينام أو يتكوّر دوماً في غرفة أرتورو، فقد كان مفتوناً بالفوضى الملحمية للمكان الذي كان يوفّر له إمكانية اكتشاف زوايا غير اعتيادية. لكن بسبب هذين المراهقين، أو ربما بسبب تلك الشقلبات والاهتزازات التي لم تكن على مزاجه بكل بساطة، كان يأتي لينامٍ معنا. وصل إلى السرير يقرقر مثل جرّار، وتكوّر فوق ساقي، ثقيلا كما بالة صغيرة من القطن. عندما مات كريستوبال أطّرت له سارة صورة يظهر فيها جالساً بالقرب من باقة أزهار الفريزيا، بكل أناقته البيضاء، ووضعتها على مكتبها. وهكذا أصبح كريستوبال من الآن وصاعداً دوماً هنا، إلى جانب نباتات الفريزيا، في منزلنا في لاميزا على أحد رفوف المكتبة. ما إن وصلنا إلى لاميزا حتى أصبح لدينا قط أسميناه سبارتكوس. كان أسوداً لمّاعاً ذو لون لم يسبق لي أن رأيت مثله عند أي حيوان آخر، بيد أنه لم يبقَ طويلاً معنا.

خصيناه بالطبع، لكن هنا، في لاميزا، تتنزّه القطط فوق الأسطح، في الشوارع وغالباً ما كانت تختفي دون أن تترك أثراً وراءها، كما هي الحال مع هذا القط، لأنهم كانوا يأكلون فئران مسمومة، أو يُدهسون من قبل السيارات، أو يُقتلون من قبل الكلاب أو الناس. «هذا المكان أشبه بالغرب البعيد بالنسبة للقطط» علّق أرتورو في إحدى المرات قائلاً. لم أنجذب إطلاقاً لفكرة رسم الحيوانات، عدا الأنواع البحرية مثل سرطانات البحر، أو القواقع، أو الحلزون، والذين يُعدّون شبه جماد، على شاكلة الأزهار تقريباً.

بلطف، عدّلت من جلسة كريستوبال كي لا يسحقني بثقله. إنها الثانية عشر واثني عشر دقيقة. لم أتوقف عن النظر إلى الساعة. كان الوقت يصدر صريراً يعذبني بمسننات رؤوسه الحادة. كانت سارة تتحدث في الهاتف وهي في غرفة الحمام، بلهجتها الصافية المهدهدة. الساعة الثانية عشر وأربع عشرة دقيقة. في الشارع، كسر أحدهم زجاجة على حائط أو على الأرض. عندما وصلنا إلى الشقة، كان الضجيج أسوأ من ذلك بكثير، الآن لم يعد هناك زجاجات مكسورة على الزفت أو على الجدران، لم يعد هناك شتائم وفوّرة من الأصوات، فالحيّ تغير شيئاً فشيئاً، وتحوّل إلى حيّ على الطريقة الحديثة، فتحوا فيه معارض للفنون، ومطاعم فاخرة. وأصبح الناس يدعونه من الآن وصاعداً «الجانب الشرقي» وليس «الجهة الشرقية الدنيا». في الشوارع أصبحنا نشم بشكل أقل رائحة البول، وتناقص أعداد الأشخاص الذين ينامون على الأرصفة، ولم نعد نرى إلا نادراً بقايا براز بشري. إنها «نعمة ونقمة» قال في إحدى المرات بابلو،

كان يخشى أن يصبح كل شيء متكلّفاً، غالياً، ومزيّفاً قليلاً، تماماً كما الجانب الغربي أو حي سوهو، وهذا ما كان في الواقع سينتهي عليه الحال مع الزمن.

لم يخرج كريستوبال من المنزل خلال الأربع عشر سنين التي عاشها بيننا إلا مرّة حين أخذناه لنفحصه عندما كان لم يزل صغيراً، ومرة بهدف تعريفه على «العالم الواسع» حين أخذته ذات صباح إلى سطح البناء. عندما شعر بالسماء الزرقاء فوقه، والحجم المذهل للكون تحته، استبد به ذعر جعله يلتصق بالأرض حتى لم يعد يبدو سوى جلدٍ منبطح على بطنه، نستطيع القول أن السماء بحدّ ذاتها هي التي كانت تسحقه. أنزلته بسرعة إلى الشقة، وبالطبع، ركض والتجأ في أعمق نقطة ممكنة في فوضى خزانة أرتورو المدهشة، حيث بقي ما يقارب الساعتين في العتمة، وحدقتي عينيه تشعّان.

خرجت سارة من غرفة الحمام.

الساعة الآن تشير إلى الثانية عشر وثماني عشرة دقيقة. تجاوز عقرب الثواني الرقم ستة بقليل.

– ما الذي يجري؟ تأخرتُ حتى سألتها، وهي بدورها أخذت وقتها في الجواب.

– لا أعرف، لا أعرف. قالت أخيراً. أعتقد أنهما خائفان.

– آه. نعم، قلت لها، وارتفع لهب النار الأزرق، الأصفر والحمر، والأخضر المخيف من أعماقي، مسبباً العذاب لما أدركت أنها جدران روحي، وبدا كأنه يلعق الحبل السري والنخاع والمخ

والمخيخ. أطفأنا الضوء الذي على الطاولة الصغيرة قرب السرير، واستلقينا ونحن ممسكان بأيدي بعضنا البعض، وأنا منزعجٌ من القط، الذي عاد ليأخذ راحته في الجلوس ويسحق لي ساقيّ من جديد. في هذه الأثناء، بدا لي الانزعاج الذي يسببه كريستوبال بمثابة راحة، ودعم. انتقلت من وجه سارة، لأبحث في شعرها وأستنشق رائحة نظيفة، ونضارة حارة، إن أمكن القول، كما لو كنت أنتظر مساعدتها للتخفيف من حدة الحريق.

فكرت أني نمت بضع دقائق، وأن باب الشقة أيقظني، وهو يُغلق في الخاطف. نهضت كي أتحقق مما يجري فوجدت نفسي أمام هذا الوتد الكبير أرتورو، وهو في الشورت ـ بوكسر، يعود إلى غرفته وقد تشاجر مع آنبر، فذهبت.

«قالت لي إني ممل جداً». قال أرتورو، وقد بدا بهيئة عصبية جداً». هذا أفضل، فلتذهب بابا. أنا لست في مزاج جيد لهذه الحماقات. سوف أتصل بها لاحقاً وأسوّي معها الأمور.

الساعة تشير إلى منتصف الليل وثلاثون دقيقة.

استلقيت قرب سارة وسمعت أرتورو، جيمس وديبرا، يتناقشون بصوت هامس في الصالون. ثم أصدروا ضوضاء في المطبخ كما لو كانوا يجهزون قهوة أو شاي. وصلت إلى أنفي رائحة الشاي، ومن ثم الخبز المحمّص، وسمعت صوت السكين وهي تكشط شطيرة مربى.

وضعت بلطف ذراعيٍ فوق نهدي سارة. وضممتها إليّ. كي أغازلها، نعم، لكن أيضاً كي أبحث من جديد عن الحماية.

الفصل العشرون

استيقظت على نوبة من نوبات الكلوستروفوبيا[19] التي كان يجب علي الإسراع في التحكم بها ولو بأي طريقة كانت كي أتحاشى مشهداً من الصراخ أو من لا أعرف ماذا أيضاً. نهضت وأنا تقريباً أرمي الغطاء، وهرعت نحو النافذة كي أتنفّس ملء رئتي، وأنظر إلى السماء ونجومها، وللقبور والأشجار، وهكذا، في حدود الساعة الواحدة صباحاً، كان بالإمكان رؤية رجل يقارب الستين من العمر، نحيلاً وعارياً، وجذعه منحني نحو المقبرة، لكنه على الأقل لم يكن يصرخ.

سألتني سارة ما الذي يحدث معي؟ فأجبتها :نوبة من الاختناق، لكنها انتهت الآن، لحسن الحظ أن لدينا هذه الأشجار.

دخنت وأنا انظر إلى الأبنية القديمة في الأسفل، ذهبت إلى غرفة الحمام وأخذت من الصيدلية قرص آخر من مضاد الاكتئاب الخفيف، الدواء الذي وصفوه لي منذ شهرين.

---

[19] Claustrophobie: الخوف من الأماكن المغلقة.

- هل نتصل بهم؟

- دعيهم يرتاحون قليلاً.

كان الجميع لم يزل في المطبخ. ذهبت لأشرب القليل من الشاي، وصلت سارة بعد لحظات وقلقت من عدم وجود آنبر قرب أرتورو. عاد فشرح لها أن آنبر قد رحلت لأنها كانت تجده غير محتمل، لكن في الواقع كانت هي غير المحتملة. قالت فينوس أن الأمور ستكون أفضل هكذا، وأنه سوف يرتاح قليلاً الواحد منهما من الآخر، ومن ثم سوف تعود آنبر. «بالنسبة لي أنا لا أبالي بهذا الأمر» قال أرتورو بغطرسة وحدّة مفرطة. استلمت الحديث، وقلت باللغة الإنكليزية، فقط كي أقول شيئاً ما، قولاً قديماً لـ كالي: «المرأة التي لا تكون مملّة، تصبح رجلاً» لكن وحده جيمس استطاع على ما يبدو أن يجد الفكاهة في هذا القول.

جلسنا نحن الستة على الطاولة نشرب الشاي بصمت. كنت كمن يشاهد أجواء عشيّة مأتم في ميدللين منذ خمسة عقود خلت. اخترق النافذة صوت مرعب، ربما يكون سنجاب هوجم من قبل جرذ أو جرذ هوجم من قبل سنجاب داخل حديقة المقبرة. «حديقة النعيم» رجال بأذناب جرذان، وجرابيات بأقدام أطفال. اخترق النافذة أيضاً صوت مشادّة بين رجل وامرأة بأصوات ولغة شائكة. كانا مخمورين، لابد وأنهما كانا في الطريق المحاذي لبوابة المقبرة، بالقرب من إحدى العذراوات أو عند أقدام هيلين لويز دالاس العظمية الصغيرة، المدفونة عام 1975. حينها، قررنا الاتصال بالأولاد.

«عظام صغيرة».

أمام دهشتي الكبيرة، وربما دهشة أنجيلا، طلبت منها في الأسبوع

الماضي أن تشتري لي باقة من الورد من السوق وترافقني إلى قبر سارة. يتركني التقدم في السن ومفاجآته أحياناً عاقد اللسان. لا أعتقد ولا بأي طريقة بوجود حياة أخرى، ولا بأن الموت عبارة عن شيء آخر غير تشابك الكالسيوم، مع الأثمال، والحشرات المقيتة لكنها على الأقل بريئة. انظروا إليّ الآن، أسير مع عصاتي ذات المقبض الفضي المتكلّف قليلاً، والتي اشتريتها من مخزن الأنتيكات في نيويورك فقط لأنها كانت جميلة، عندما لم أكن بحاجة إليها بعد، مرتدياً البيبيريه باسك التي جلبها لي الأولاد، وسترة من القطن بلون أسود، وبنطال من الجينز ماركة ليفينز بلون رمادي غامق، وحذاء مخملي بنيّ اللون، وحزام من الجلد الأسود مع قفل من الفضة بسيط جداً، وأفضل قميص لدي، مزرّر حتى الرقبة. باختصار، كنت مع كامل ملحقاتي الضرورية لأقفز في الفراغ، وأتلقّى التكريم واقفاً أمام قبر سارة، حيث انحنيت لأضع وروداً صفراء منقّطة بالأحمر.

«أبدو شخصاً آخر» يقول الشاعر، الذي كان فرنسي الجنسية، لكنه كان هنا يعبر كما لو كان الشاعر «لي باي»[20].

لاحقاً سوف أملي نصوصي على أنجيلا لأن نظري عاد ليتعب من جديد، وهذا ما فعلته:

«كان لزاماً عليّ الاستلقاء من جديد، لأنـي لم أعد أرى شيئاً. وضعت فوطة رطبة على عيني كي أريحهما. وتابعت من حيث توقفت: كنت أقول في الساعة الواحدة صباحاً، اجتمعنا في غرفة الطعام. بقينا هنا دون أن نتحدث كثيراً، وأخيراً قررنا الاتصال

---

[20] لي باي: شاعر صيني عُرف بالأغاني الرومنسية في 750 م.

بالولدين ونتحدث معهما جميعاً. تكلمت ديبرا ثم جيمس، وقدما لهما الدعم....».

أبهجتني الكتابة الإملائية لأنجيلا. كم يؤثر بنا الجمال عندما ننتظر منه الأقل! بالتأكيد، يبدو في الوضع الحالي أني أتأثر عاطفياً وأرى الجمال في كل مكان. أختي الكبرى التي كانت تشرح الأمر بأسلوب مثالي، تعاني هي الأخرى من أخطاء إملائية وتشوّه كل الكلمات التي كانت على استعداد أن تغضّ الطرف عنها. أعتقد أن للأمر علاقة بعسر القراءة. لكن كان لدى أنجيلا بالمقابل خط جميل، بيد أني عند مراجعتي للنص كي أرى إلى أين وصلت، ظهرت أمامي كلمات كالجواهر مثل: «أرا، فوطا ـ قلت لها ذلك دون أي سخرية ـ كلمات تصرفني عن أفكاري بالتأكيد، وتجعلني أفقد ضبط الموضوع الذي كنت علي وشك أن أحكيه». كان الأمر معقداً أيضاً عندما كانت تسأل مثلاً:

– من؟ ماذا؟

كما وجب عليّ أن ألفت انتباهها إلى التهجئة: د ـ ي ـ بر ـ ه ـ في أول الكلمة حرف كبير.

– مع حرف «الهاء» في آخر الكلمة.

– نعم أنجيلا.

– أليست ديبورا؟

كان بإمكاني أيضاً الإملاء على ابنها بالطبع، والذي هو دون شك أفضل منها في الإملاء، لكن لم أرغب في أن تمرّ كل تلك القصص التي كانت صعبة وحميمية بين أيدي مشعّرة (كقرد المكاك الذكر) ناهيك عندما يكون الشخص ثرثارا ومهذاراً مثله. كي أتحاشى الإساءة إلى أنجيلا لتوقفي الإملاء عليها، شرحت لها بأفضل ما استطعت أن

كلمة فوطة مكتوبة بالألف كما الفوطا تجعلني أفقد تركيزي.

بالنسبة إلي، كلمة فوطا مكتوبة بالألف أو بالواو، سيد دافيد، تبقى دائماً «فوطة» أجابتني.

اقتربت نحوها كي أنظر جيداً في عينيها وأداعب وجنتها.

- لا تقلقي، أنجيلا، سوف أعود لأطلب منك الكتابة مرة أخرى، عندما سأصبح أحولاً تماماً.

وضعتُ سوناتا لكمان وقيثارة لباخ، لكنها معزوفة على البيانو من قبل العازف غلين غولد[21]. سمعت الموسيقى من الحاسوب الذي جعله الأولاد ينسجم مع كبار السن وهم في طريقهم لفقدان النظر: على الشاشة كان يظهر كل شيء بوضوح، ويبدو ضخماً ومتبايناً.

الساعة الآن تشير إلى الخامسة بعد الظهر: بعد حوالي ساعة من الآن، ستصل الخفافيش كي تلامس الضوء الأبدي. لنترك مقطع غرفة الطعام في شقة الشارع الثاني، الذي هو من أصعب المقاطع للغد. لم تشعر أنجيلا إطلاقاً بالإهانة وذهبت لتجلب لي القهوة الثقيلة التي طلبتها منها كي أسمع بشكل أفضل الموسيقى. أنجيلا كانت قصيرة القامة، وممتلئة الجسم، غير مترهلة، صلبة وقوية، ناهدة وذات وجه جميل. عيناها صافيتان وشديدتا السواد. جسمها شديد البياض وشعرها أسود وأملس، وابتسامتها سهلة. وهي عارية لا بد وأنها ستبدو من نوع فينوس. كنت أحب أن أرسمها ببعض الصور الفحميّة، حتى وهي مرتدية ثيابها:

---

[21] عازف بيانو كندي أصبح من أشهر وأفضل عازفي البيانو الكاسيكيين في القرن العشرين واشتهر كمفسّر لموسيقا معزوفات يوهان سيبستيان باخ.

الفصل الواحد والعشرون

كنت الأخير الذي تكلم مع الأولاد ولكن ليس من الصالون، فضلت الذهاب إلى مشغلي. وهذه المرة استطعت التكلم لفترة أطول مع جاكوبو.

قال لي إنه يشعر بآلام شديدة جداً، ولكنه نجح بتسكينها على الأقل. لا لم يكن يستطيع النوم.

«هذه الآلام الحقيرة لا تتركني أغمض عيني بالإضافة أنني مصاب بالإمساك، إنني متعب من كوني يجب مساعدتي لأتبرز يا أبي (ولديّ أظهرا بذاءة كبيرة أكثر مني بكثير).

هل أنت خائف؟ سألته بصراحة.

قال بالطبع، أنا خائف فمن تعتبرني يا دافيد سوبرمان أم من؟

ضحكت قليلاً كما لو أردت التخفيف عنه. ساد بعدها صمت طويل.

قلت له: إن كنت نادماً فلم يحصل شيء بعد.

أعرف يا أبي أعرف، إن كنت نادماً فلم يفت الأوان بعد.

قلت له: لا وجود لرجل قوي أو شجاع. لا شيء من هذا كله. أفهمت؟

نعم يا دافيد أعرف ذلك. قالها لي كما لو أنه قد نفذ صبره قليلاً.

سألته وبابلو؟

أجابني: هو بخير فهذا العملاق يمكنه أن يحمل العالم على كتفيه ومازالت لديه القوة دائماً.

سألني: وهل أعجبتك زهرات (الأوركيديا) التي وشمها؟

– نعم، نعم لقد أعجبتني. ولكن هل تعتقد بأنه سيقوم بوشم غيرها؟

– أعتقد نعم يا أبي فجهّز نفسك. عندما تبدأ بهذا الأمر فسوف لن تتوقف أبداً ولكنها تناسبه أليس كذلك؟

أجبته: إنها رائعة.

– ولكن قل لي كيف ترى بأمي؟

قلت له الحقيقة كما هي: أعتقد بأنها كانت تفضل أن تندم أنت وأن تعود إلى البيت ولكنني لست متأكداً من ذلك.

– نعم نحن لا نعرف شيئاً. وكيف تدبر أمورك مع لوحة الباخرة ؟

– إنها هنا أمامي، أشك بأنني سأنهيها ولكنني أقترب من ذلك أكثر فأكثر.

وحكيت له بعد ذلك بأن أرتورو تشاجر مع صديقته وأنه متوتر جداً.

– بالطبع، لا غرابة في كل هذه القصة يا دافيد أليس كذلك؟

كانت جميلة تلك الصور الأخيرة التي نقشتها لـ آنبر. قال ذلك كما لو أنه يريد تغيير الموضوع بسرعة.

– نعم إنها جميلة هذه الصور، يجب الاعتراف بأن تلك الفتاة رائعة الجمال، أرجو أن لا ينفصلا نهائياً كي أتمكن من نقش صور أخرى لها.

– أقبلك يا أبي، سنتكلم لاحقاً.

– أقبلك يا جاكوبو، فليقم بابلو بعمل تدليك لك إن عذبك الألم كثيراً. وفي هذه الحالة تناول بعض المسكنات، ولا يهم أي نوع منها، إنها فقط للوهم، أعرف أنها لا تفيدك بشيء.

– حسنٌ يا دافيد أقبلك «تشاو» إلى اللقاء..

بقيت هناك، كوعاي على ركبتيّ ووجهي بين يديّ أنظر إلى الأرض، جالساً على الكرسي الذي أستخدمه لدراسة اللوحات، في مواجهة ضوء الماء الذي لم أتمكن من التعبير عنه بعد.

دخلت سارة وقبلتني على الرأس والعينين والأنف والفم.

لحسن الحظ أنها دخلت لوحدها لأنه في حالتي هذه كنت غير قادر على تحمل مظاهرة من الحزن الجماعي «على الطريقة الأمريكية».

وهنا كان على الرجل العجوز الحساس أن يقوم باستراحة. «المثانة الهرمة». كما لو أن العالم لم يكن قد أصبح سائلاً بشكل كافٍ لي مع مشكلة النظر العويصة هذه.

دخنت سيجارة بييرلوخا وأنا جالس على حافة السرير، ثم استلقيت لأنام قليلاً. لم يسبق لي أن عانيت مطلقاً من آلام المثانة في

السابق. كنت أفاخر وأنا في هذه السن بأنني أتبول كحصان. استيقظت ربما بعد نصف ساعة وشعرت بوهن شديد، إنه دونما شك هبوط في الضغط.

جلبت لي أنجيلا كوباً كبيراً من «الأغواردينتي»[22] أنعشني قليلاً... وضعتُ موسيقى «فيللا ـ لوبوس» نفس الموسيقى التي ساعدتني على إنهاء لوحة باخرة «ستيتن آيلاند»، وها أنا من جديد مع عدستي المكبرة أمام صفحاتي، بينما كانت المرأة تغني بصوتها الرخيم أغنية «باشيانا برازيليرا رقم 5»[23].

كانت تبدو وكأنها موسيقى جنائزية بالنظر إلى الحالة التي كنت أشعر فيها أمام الأمور، دون أن يكون لدي أدنى فكرة عما تعنيه الكلمات المكتوبة باللغة البرتغالية.

بقيت هناك في مرسمي على كرسيّ، ذو قماش بلون زهرة عباد الشمس، كمخرج منفّذ. الوحدة الكبيرة هي كلوحة فارغة ظاهرياً، فارغة بشكل مخادع .

في الساعة السابعة مساءً دخلت إلى البيت، أغلقت الأبواب والنوافذ وأنا أتحسس القبضات والمزالج لأن نظري يصبح في الليل سيء جداً.

جلست على المقعد الجلدي. شعرت بالبرد فذهبت للبحث عن الكنزة الصوفية السميكة التي قدمتها لي سارة قبل عودتنا من نيويورك (كنزة عملية، غالية وجميلة كما كل الأشياء التي كانت تقدمها)

---

[22] aguardente: مشروب كحولي في أمريكا الجنوبية.

[23] bachiana brasiliera: أغنية من البرازيل.

عدت للجلوس على الكرسي وبقيت جامداً ربما لما يقارب الثلاثين دقيقة، بدأ حينها صرصار الليل بالغناء في مكان ما من الصالون، كما لو أن حضوره كان للمشاركة.

إنه نوع من حشراتٍ قاتمة اللون، ليلية وبشعة تشبه الصرصار، ذات صوت قوي جداً لا يعجب كل الناس.

فجأة امتلأت وحدتي الكبيرة بالكون كله.

الفصل الثاني والعشرون

عندما انتهت سارة من تقبيل عينيّ ومواساتي كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً.

سوف لن يتمكن أحد من النوم في الشقة هذه الليلة، فقط سارة وأنا سنقوم بالمحاولة من جديدة.

أضأتُ المصباح فوق اللوحة وبدأت بالعمل بينما بقي الآخرون جالسين حول الطاولة في المطبخ يتحدثون ويحتسون الشاي أو القهوة.

رنّ جرس الهاتف وكنت أعلم من المتصل فأجبت:

– مساء الخير مستر دافيد قال ميكائيل أونيل.

اعتذر لاتصاله المتأخر وسألني إن كانت فينوس موجودة فأجبته بنعم. طلب مني أن يتكلم معها إن لم يكن هناك من إزعاج.. فناديت عليها

شكرتني فينوس مبتسمة وانزوت في غرفة جاكوبو لتتكلم مع

ميكائيل حيث لا يمكن لأحد الاستماع إلى حديثها.

بقيت فينوس لزمن طويل تناديني بـ مستر دافيد مثلها مثل ميكائيل. حتى تمكنت أخيراً من إقناعها بمناداتي باسمي فقط دون مستر وباللهجة الإسبانية. كانت قسمات وجهها مرهقة هي أيضاً.

– هل تريد قهوة؟ سألتني سارة التي تركت المطبخ ونظرت إلى اللوحة.

– لم أستطع التوصل بعد لإظهار الشعور بالدوار.

– لا تفكر في ذلك. هل تريد قهوة أم شاي ؟

– قهوة قهوة قهوة (قلت بسرعة) وذلك لأخفي رشقات من الفرح الشديد وشت بها نظراتي إثر تعليقها على اللوحة. فالشعور بعاصفة من الفرح في حالتنا كان يبدو لي عبثياً وحتى كريهاً.

لكن سارة لم تنتبه لذلك فقد أدارت لي ظهرها وذهبت لإحضار القهوة.

عندما عادت بالقهوة تابعتْ ما كانت قد بدأته بقولها :

– الزبد الآن أصبح حقاً جميلاً جداً.

كان رسم الزبد جيداً منذ البداية، لم أقم بأي عملية تعديل عليه ولكن التباين مع الماء ازداد وجعله يشع بقوة وبحدة أكثر.

كنت أعمل على لوحاتي بحماس كبير وبنوع من الجيشان العاطفي (رغم ذلك لم يقلل هذا من النقد من أن البرودة تغلب عليها) لكن مع لوحة المعديّة كنت أعمل كما لو أن حياة كل منا متعلقة بالآخر. كان كفاحاً ضد الفناء والذي به كان يمكن القضاء على العدم، وكان يتوجب التعبير عنه كما لو كنا نمسك الشيطان من ذيله ونقذف به بعنف في وجه الحائط. تبين لي هنا أن الصور

الدينية في طفولتي تعود للسطح وتهبط بشكل عبثي برسم مجرد والذي بإمكان الأغبياء فقط أن يحكموا عليه بالبرودة.

دخلت فينوس وقالت بأن ميكائيل على علم باختيار جاكوبو وأنه اهتم بالخبر لأنه كان يرغب بإتباع نفس الطريق إن جرى كل شيء على ما يرام. كان جاكوبو ـ والذي يكبر ميكائيل بعشر سنوات ـ مثاله الأعلى، وكان ابني يحبه كثيراً. كان يعرف كيف يحدثه ويعطيه بصدق معلوماته الطبية العميقة ـ المختصة بالتأكيد بمرضه ـ التي كانت رائعة بالنسبة لشاب يعلّم نفسه بنفسه. فبالحقيقة، كان تثقيف هذا المسكين لنفسه، بدقة، يساعده كثيراً.

كم بدت فينوس جميلة تحت هذا الضوء الذي ينير اللوحة، بهذا التعبير المتزن للحزن، البعيد عن أي ميلودراما، الذي بالعادة يترافق ويتزامن مع من يواجه يومياً الألم العنيف!

عدت للتفكير في الوجوه الحزينة لنساء المستعمرات الرومانية في مصر، وبالحزن الذي تعبر عنه بعض هذه الوجوه.

قالت: تباً لهذه الحياة الصعبة.

– أجل تباً لهذه الحياة الصعبة[24]. رددت ذلك، أنا الذي لا يتلفظ بأي بذاءة.

وبدون أن أطلب منها شيئاً ذهبت فينوس إلى المطبخ وعادت مع فنجان قهوة آخر ووضعته على الطاولة المنخفضة بجوار اللوحة ونظرت إليها بإعجاب واضح دون أن تقوم بأي تعليق.

الساعة الثانية والنصف صباحاً. كيف يمكن للوحة أن تتغير

---

[24] مكتوبة بالإنكليزية: it is Fucking hard .

بست أو سبع لمسات من الفرشاة وبأقل من خمس دقائق! لم تكن المعركة مع الفرشاة إنما مع النظرة ومجال الرؤية، والتي يمكن لها أن تكون منفتحة أو محدودة.

انطلق صوت ضحكات من الصالون، من المؤكد أن أرتورو يقوم بدور المهرج. وبالفعل، كان هذا الطويل والنحيل يقوم بتقليد «بريتي» وهو يتحدث معي.

كان يتناوب بتمثيل الدورين، فعندما كان يمثل دور بريتي كان أرتورو ينحني على المقعد حيث كان سائق التاكسي يحب أن يجلس، ثم يمر سريعاً إلى مقعدي عندما كان يقوم بتقليدي.

– تعود ديانة السيخ إلى القرن الخامس عشر. قال أرتورو بلكنة بنجابية. ثم انتقل راكضاً يجلس على مقعدي واضعاً رجلاً فوق رجل. هو الذي كان أصلاً طويلاً ونحيلاً، كان يبدو أكثر نحولاً وطولاً، وخاصة أشدّ عزماً.

– آه هذا غير معقول.

كان أرتورو قادراً على خلق فترة طويلة من الراحة يتبعها بأخرى دوماً.

اندفع مسرعاً نحو مقعد بريتي.

– إن مصطلح «سيخ» يأتي من اللغة السنسكريتية «سيشا» والتي تعني تلميذ أو طالب أو من كلمة «سيشكا» والتي تعني معلم . إن السيخ هم تلاميذ لزعيم الطائفة.

وانطلق في سباق جديد نحو مقعدي.

– غير معقول! غير معقول. أليس كذلك يا سارة؟ قالها أرتورو

بلغتي الإنكليزية الصحيحة إنما يغلب عليها لهجة الميدلليين[25].
بدت محاولاتي اليائسة لجعل بريتي يتركني بسلام ويتوجه نحو سارة مضحكة.

عندما انتهى أرتورو من تهريجه عدنا لاحتساء القهوة والشاي، وبقينا صامتين.

وفجأة تجهّمت نظرة سارة وذهبت بسرعة إلى غرفتنا حيث لا يمكننا رؤيتها.

لم يذهب أحد ليواسيها كنا نعلم جيداً بأن ذلك مستحيل وبأنها تريد أن تبقى وحدها على كل حال.

---

[25] Medelline: ثاني أكبر مدن كولومبيا.

الفصل الثالث والعشرون

- مساء الأمس فكرت قبل أن أخلد إلى النوم أن بي رغبة للشعور بالمناخ الحار الحقيقي، فقررت أننا سنذهب اليوم إلى جيراردو، المدينة التي أشرت إليها سابقاً، والتي هي خربة، حارّة وأيضاً جميلة. على شاطئ بحيرة ماغدالينا. ها أنا إذن الآن في غرفة فندق، الساعة السادسة والنصف مساءً يوم السادس من تموز عام 2018 وأنا على وشك كتابة بضعة سطور على المكتب، الذي سبق وعلّقت عليه عدستي المكبرة المتنقلة. كانت النافذة مفتوحة ويتناهى إلى السمع صوت جداجد الأراضي الحارة، وتتسرب إلى الغرفة رائحة كثيفة لنباتات طالما أبهجتني. أشعر في بعض الأحيان بسعادة قصوى! توقفت فوراً عن الكتابة وخرجت لأدخن سيجارة. وجلست على إحدى الطاولات المواجهة لهذا المسبح الرائع، شربت زجاجة بيرة منعشة، أو ربما زجاجتين.

الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً، شربت بالأمس مساءً زجاجتي بيرة منعشة، ومن ثم كأسين من عصير الأغواردينت، وكأس من

النبيذ. واليوم أشعر بفمي كما لو أنه من خشب، بالرغم من ضلع الخنزير المشوي، اللذيذ والشهي، الذي تناولته في هذا الفندق قبل أن أذهب إلى النوم، ومع أني لم أكن أشعر بالحزن.

لم أستطع أن أقنع أنجيلا في الذهاب إلى الماء. لم يسبق لها أبداً أن فعلت ذلك، ليس خجلاً من أن تعرض جسمها، على ما أعتقد، إنما بالأحرى كونها ستسبح في مسبح الأشخاص الأغنياء في المدينة. لكن هذه المرة قررت أن تشتري ثوب سباحة من إحدى تلك المحال التجارية. بالنسبة لي، كنت سأحب رؤيتها تحت أشعة الشمس وهي بلباس البحر. ربما هو نوع من الإفراط بنهم لتأمّل الأشكال الجميلة لهذا العالم الذي لم يزل يضغط عليّ، بالرغم من رؤيتي المتماوجة للأشكال وازدياد الغشاوة. عند وصولنا، بعد اجتيازنا الجسر شاهدنا أن ماغدالينا قد غدت شبه جافة، ذكّرني شاطئها الواسع والعريض بالرغم من صعوبة نظري في تمييزه، بزوارقه وقواربه الجانحة على الرمل، ببعض لوحات لا أدري من أي قرن حيث يظهر فيها المناخ النهري أو البحري، مزينة أحياناً بصروح أو بأنقاض بناء، تبدو فجأة وكأنها قد خرجت من كابوس أو حلم. لكن نظري كان من الضعف بمكان لدرجة أن الصور التي كنت أتلقّاها بدت وكأنها هي الأخرى قادمة من الداخل أكثر منها من الخارج. وأحياناً كنت أجهل إن كنت أرى ما أرى، أم كنت أفهمه، أو أتذكره أو أتخيله فقط.

ذهبت سارة إلى الغرفة كي تبقى مع الحزن لوحدها. وأنا الآخر، جلست من جديد أمام اللوحة دون أن أنظر إليها، بل كنت أنظر إلى الأرض، فقد هجم عليّ الألم بكل قوته، واخترقتني ألسنة

اللهب مجتازة أعماقي، متنقلة من جهة إلى أخرى، وهي تكاد تخنقني. أخذت قرصاً آخر من المهدئات الذي بدا لي دون فائدة. تمنيت من كل قلبي أن يعدل جاكوبو عن رأيه ويعود إلينا، حتى وإن كان بانتظاره العديد من سنوات العذاب. عدت إلى الغرفة واستلقيت على السرير في مكان سارة، التي كانت في الحمام تغسل شعرها، أغلقت عيني كي أتأمّل اللهب. وصلت سارة بعد قليل وتمددت برقّة فوقي، مشكّلة ما يشبه السحابة. وضعت يدها على يدي فاتخذت اليدان شكلاً حلزونياً على ساقي.

كلما مرّ الوقت كلما أصبحت الحقيقة ضاغطة أكثر. بدأت يد سارة التي كانت باردة قليلاً تدفأ شيئاً فشيئاً. شعرت بعدم انتظام دقات قلبي، بقفزات صغيرة وتمتمات، وضربات استطاعت أن تهزّ جسدي بشكل غير محسوس. «لن أستطع الموت الآن. فكرت. وإلا فما الذي سيحلّ بهم؟». عدت لأتنفس بشكل أكثر عمقاً وأكثر انتظاماً، حتى توقفت أخيراً تلك الضربات والهمهمات، لكن ليس اللهب. عدت لأفكر «لن أستطيع المتابعة بالارتعاش في كل لحظة كما المجنون بسبب نوبة من رهاب الأماكن المغلقة، الآن أكثر من أي وقت مضى». توصلّت أن أضبط نفسي. فكرت بالفنان الإيرلندي الذي رسم لوحة لرجال دين على وشك أن يصرخوا. كان الوقت يمرّ ببطء شديد، بل هو بالكاد ينحسر، لكن الأمر بدا كأنه يريد أن يسحقنا بشكل أفضل، ويلعقنا بلهيبه أكثر. أرخى صمت مضلل بثقله مرة أخرى في الشقة بالرغم من أن ديبرا وجيمس كانا يتشاجران في المطبخ، وأرتورو يدوّزن حبال غيتاره وهو في غرفته، وبالرغم من ضجيج الزجاجات المكسورة الذي لم يتوقف من الجانب

الشرقي الأدنى، والصرخات الذي كانت تتناهى إلى أسماعنا بين وقت وآخر من بعيد.

- هيه أنت! أيها السافل الحقير! كانوا يصرخون.

تحدثت في الأسبوع الماضي مع ديبرا وجيمس. أخبراني أنهما حصلا على إقامة في دار للمسنين تقع في رود آيلاند، وتملك ملعباً للغولف، مسبحاً، وغرفة للبولينغ. وصفوها لي وكأنها جنة على الأرض، وكلما أسهبا في وصف ملعب الغولف، وفريق المرضات، والأطباء المتواجدين أربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين، كلما بدا لي ذلك مرعباً أكثر. هنّأتهما، بالطبع، لكنني لم أستطع منع نفسي من التصريح أن أموراً من هذا النوع ليست لرجل مثلي.

التزم جيمس الصمت لبرهة، وندمت على قولي هذا، سألت متى سيقيمان هناك، فأجابني بأن واحدة من تلك الشقق الصغيرة سوف تفرغ بعد عام ونصف. كان صوت جيمس عميقاً جداً، ودافئاً، وقد أضحى مع التقدم بالعمر أكثر عمقاً ودفئاً، أكثر ضعفاً إن أمكن القول، كما لو أنه لا يملك منه الكفاية. بالمقابل كان صوت ديبرا أكثر حدّة، ووقاحة، لنقل أن لديها صوت يليق بسيدة مسنة وذكية، صغيرة الحجم، وفضولية كما هي اليوم.

الفصل الرابع والعشرون

قررت أنجيلا الذهاب إلى المسبح بعد الظهر. كنت أُخمّنن بالرغم من عدم دقة تمييزي لها، أنها كانت تقترب من الماء مبتسمة لي بأسنانها البيضاء. كانت قصيرة، ضخمة، وقوية، مع مقاييس متناسقة تتماشى تماماً مع طريقة حياتها. لم أرغب أن أطلب منها أن تقترب، كي أراها بوضوح أكبر، فقد تعتقد أني رجل عجوز منحرف. كان ثوب السباحة أسود، بقطعة واحدة، مع دوائر برتقالية اللون نُظّمت على شكل 2 سم في القطر الواحد. جسمها الأبيض ذو اللون المرجاني كان يشعّ صحة تحت أشعة الشمس. كان للجلد تلك اللمسة من اللون الأزرق التي نعتقد أننا على وشك أن نراها في بياض الرّضع. كلما أصبحت «أحولاً» كلما أصبحت يقظاً أكثر للتفاصيل. وبما أن سارة لم تكن هنا كي تحذّرها من أنها يجب أن تضع واقياً شمسيّاً، كان يجب عليّ أنا القيام بذلك.

أمام دهشتي الكبيرة، كانت أنجيلا تعرف السباحة. اقتربتُ من

حافة المسبح، أنا وعصاي وسروالي القصير، وصدري العاري المترهل، وخفيّ، وقبعتي القشّية، وساقي العظميتين، ورأيتها تسبح، ومن جديد تأثرت بهذا المنظر. كانت تسبح بشكل رائع، ليس بحركات منتظمة، لكن مع صدر جميل لم يكن يشوّش على الإطلاق صفحة الماء، وكأنها حيوان مائي.

– لكن أين تعلّمتِ السباحة أنجيلا؟ سألتها عندما خرجت من المسبح وجاءت لتجلس بمواجهتي، على طاولتي.

تقدّم نادل ليسألنا إن كنا نرغب في شرب شيء ما فطلبت كوكاكولا.

– والسيدة؟

لم تستطع أنجيلا إخفاء الرضا المستمد من لهجة احترام النادل، وطلبت هي الأخرى كوكاكولا.

سوف أنسى قليلاً قصة جاكوبو طالما نحن هنا. غداً، سوف نعود إلى المنزل. سوف أغطس من جديد في هذه المهمة، التي تتطلّب وجود حواسي الخمس، التي كانت مع مرور الزمن تدمرني.

قالت لي أنجيلا أنها تعلمت السباحة في نهر كوما، بما أنها قد نشأت في كارتاغو[26]، «هو نهر كبير وبشع مثل كارتاغو». وهذا قول مستخدم في البلاد للدلالة على الأشياء البشعة والضخمة، فمثلاً نقول هذا التعبير عن أشياء مثل السيارة أو حصان، وأجهل إن كانت هذه الصيغة تظهر دقتها في استخدامها عن كارتاغو، لأن

---

[26] كارتاغو: قرطاج: مدينة جنوب غرب كولومبيا وهي الجزء الشمالي الفقير المتقع.

ذاكرتي لهذه المدينة كانت مبهجة. أتذكر بالطبع أنها مدينة كبيرة بالمقارنة مع القرى المجاورة، لكن ليست بالضرورة بشعة.

– كان والدي يأخذنا إلى النهر، يربط حبلاً حول خصرنا ويرمينا في الماء.

– لهذا أنت تسبحين ورأسك مرفوع قليلاً إلى الأعلى، كي تشاهدي إن لم يكن هناك أي جذع شجرة على وشك الوصول.

– آه، حقاً؟

بقيت أنجيلا صامتة للحظات، تتأمّل الناس الذين يدخلون ويخرجون من المسبح، مع هيئة ساهية كمن باله مشغول بأمور أخرى. كنت أعرف ما سوف يتبع ذلك. وفعلاً، سألتني فوراً إن كان باستطاعتها استشارتي حول موضوع شخصي. بام، بام! مفاجأتين على التوالي. اتضح أن عند زوجها عشيقة، تعمل كعاملة في مزرعة للهليون[27] تقع قرب منزل أنجيلا «ثقافة زراعة الهليون» قالت. كما يقول كل الناس هنا للحديث عن هليون بائعي الزهور، وكما يدل عليها اسمها، فهي تعود إلى أنواع من الهليون، والتي تدعى عادة بـ «تريفر» باللغة الانكليزية. أنجيلا، التي لم تكن تعشق زوجها بشكل خاص، على ما بدا لي، لم تكن تدري كيف يجب عليها أن تتصرّف. وهذا يعني أنها مرتبكة أكثر منها غاضبة من كل ذلك. حكت لي عن تفاصيل الحالة، فقلت لها إني سأفكر بالموضوع وسوف أقدّم لها نصيحة ما.

لو كانت سارة لحلّت فوراً هذه المشكلة. لكني كنت أجهل أنا القيام بذلك: «وأنت انجيلا، هل تحبّينه؟» لابدّ أن هذا القول بدا

---

[27] Trifer: نبتة من فصيلة الهليون تباع في محلات بيع الزهور.

غريباً وهو يصدر من عجوز مثلي، وأعتقد أنـي حتـى لـو كنـت أنـا عوضاً عن أنجيلا لضحكت. زيادة على كون الحب عند الأشـخاص ذوي الأصول القروية، أو ربما من كافـة الأصـول، أمـر يعمـل بكـل قوته خلال بعض الوقت فقط عندما نكون يافعين، لكنه لا يلبث أن يفقد معناه بعد ذلك، لأن الجميع يدرك أن العلاقات الزوجيـة هـي قضية قابلة للتعايش، وأنهـا تـتلخّص دومـاً بهـذا القـول: «كـي لا تبتلعنا الأرض، اهتمّ أنت بشؤون الحقل، وأنا أطبخ وأهـتم بشـؤون الأولاد». الحب يعني: التفاهة.

وها أنا أحشر أنفي في هذه القضية.

الفصل الخامس والعشرون

- مستلقياً قرب سارة، وأيدينا التي على شكل حلزون لم تزل ساقي، فكرت أننا جميعاً، أنا وسارة والأولاد الثلاثة، وجيمس وديبرا، فينوس وميكاييل، كنا كالسجناء داخل جحيم أبدي في منزل ملتهب بالنيران. أحياناً، كنت أفتح عينيّ وأرى عبر النافذة الليل الأعمى، أغلقهما وأتأمّل الأسى الذي كان يلتهمني من الداخل كالجمر الملتهب.

رنّ هاتف سارة، فانتصبت مثل الزنبرك. وبدل أن تجيب حاولت احتضاني وتهدئتي، ومن ثم عادت لتتصل بالأولاد، وعاد المشهد ذاته يتكرر من جديد. «نعم، نعم، بالطبع» قالت سارة وهي تتجه نحو غرفة الحمام: «أفهم ذلك، لكن يجب عليهم القيام بالأمور... كيف؟ تماماً، هذا هو. نعم، نعم، نعم» قالت وهي تدخل غرفة الحمام، ولم تلبث أن عادت إلى وتيرة الهدهدة المريعة، بينما كنت أنا أهرب نحو نافذة الصالون كي أتنشّق الهواء وأنظر إلى تماثيل العذراء في المقبرة، أو بالأحرى أغلق عيني وأتأمّل في داخلي

الجمر الملتهب. لا أعرف كم مضى من الوقت، ولا كيف مضى، ولا حتى إن كنت قد غفوت على النافذة، أو ربما فقدت الوعي لبضع لحظات. كان الزمن يتقدم ومن ثم يعود القهقري، كبندول ساعة، كالحصّادة. ثم شعرت بنهدي سارة يلتصقان بظهري. (عندما وصلت سارة إلى سن اليأس قالت لي: من غير الوارد أن تصبح أعضائي الحميمية جافة كما الحجر الخفّان، فليأكلني مرض السرطان، إن كان هذا يبهجه، لكن بالنسبة إلى هورموناتي، فسوف أحتفظ بها. وبدأت بإتباع علاج هورموني بديل، ولم يجف شيء فيها أبداً، بل على العكس من ذلك).

– أنت بخير؟ سألتني.

– ماذا قالا لك؟

– حسناً، كل شيء يجري بشكل جيد. أجابتني بعد فترة صمت، ولم أسألها المزيد خشية فقدان الأمل. لم نعد للنوم، ذهبت سارة للتحدث مع جيمس وديبرا في المطبخ، وعدت أنا كي آخذ قرصاً آخر من مزيل القلق، الذي بدا في هذه المرة نافذ المفعول، ثم اتجهت هذه المرة نحو المكتب لأتأمّل اللوحة، لم تعد الهاوية من الآن فصاعداً بعيدة. بدا لي أن لا علاقة لها بالجانب المضيء للنور، كان جانبها الآخر هو الذي يهرب مني.

عادت سارة وظهرت من جديد ونصحتني بالخروج لفترة. وبما أني كنت قد وضعت ساعة يدي في الجزء السفلي لأحد الجوارير، كي أتحاشى النظر إليها كل دقيقة، سألت سارة عن الساعة. قالت لي أنها الثالثة صباحاً. الثالثة صباحا! لم يزل الوقت مبكراً، فكرت، وفهمت سارة ما الذي يجول بخاطري، ونظرت إليّ بشفقة

وأصرّت أن أخرج قليلاً لأتنشّق الهواء. تجوّلت في الجادة الأولى حتى شارع سانت ماركس، ومن هناك حتى ساحة آستور. لم تكن بي رغبة لاحتساء كحول قوي، فقط مجرد بيرة، فاشتريت زجاجة من الحجم الكبير من أحد المحال التي تفتح أربع وعشرين على أربع وعشرين، وضعوها لي في كيس من ورق بلون القهوة، كالعادة. مرّت حافلة البلدية وعلى متنها شخصان فقط، بديا كفرسي بحر في حوض ماء مضاء. (هذه الصورة أيضاً فيها شيء من لوحة لهذا الرسام الحزين الذي أصله من «نيياك Nyack» والذي لم أستطع أبداً تذكّر اسمه).

جلست عند أقدام منحوتة على شكل مكعب كي أشرب زجاجتي البيرة. كان هناك شابان يسجلان أهدافاً بزلاجاتهم. كانا يتنقلان بصمت، وكان الصوت المنبعث من الألواح والبكرات يعطي صدى في الليل. (هوبر! نعم، هوبر، هكذا كان يدعى الرسام من Nyack). نظرت نحو الأعلى بحثاً عن النجوم، وكانت موجودة هناك. وحده كائن مخنوق مثلي سيأتي للبحث عن النجوم في ساحة آستور مقابل مقهى ستار ـ بكس، وكي ـ مارت، في مثل هذه الساعة. لكني لم أستطعٍ أن أتأمّلهما لفترة طويلة، فقد دنا مني رجل يماثل سنّي تقريبا، معٍ دراجته المجهّزة بسلّة، والتي كان يقرقع بداخلها خمسون قرصاً من أقراص التسجيل فينيل.

كما هي الحال في نيويورك، فالقصة قد تعقّدت، كان الرجل يدعى أنتوني ويتحدث اللغة الإنكليزية بلكنة أجنبية. تبين أنه من أصول روسية، وأنه قد وصل إلى هنا منذ عشر سنوات، لكنه لا يعتبر نفسه روسيّاً، بالرغم من لكنته، وهو لا يحب التحدث باللغة

الروسية، لأنه يُعرّف نفسه كمواطن أميركي. عاش أربع سنوات في ريو بالبرازيل ويتحدث أيضاً اللغة البرتغالية. حدثني قليلاً باللغة البرتغالية، وطلبت منه أن يعود إن أمكن للتحدث باللغة الانكليزية، نظراً لعدم إلمامي باللغة البرتغالية. لعنت سوء الحظ الذي أنزل عليّ هذا النوع من المخادع النيويوركي في الوقت الذي كنت بالكاد أملك القليل من القوة لمجابهته.

كنت أعرف هذه الإشكالات التي كانت تتناوب على نحو متزايد، ودوماً بشكل أكثر إدهاشاً.

كان أنتوني يشتري ويبيع الأقراص المدمجة. ودون أن أطلب منه أي استفسار، أخرج خمسين قرصاً من سلّته وفرشها أمام منحوتة الملعب، على شكل سجّادة، ومن ثم جلس معي كي يتأمّلها. النجوم! لم يعد هناك مجال للنظر إليها. لم يزل صدى الزلاجات يدوّي في الشارع العام. لم يترك لي أنتوني أيضاً الوقت للتفكير بجاكوبو. «إنها لفرقة الرولينغ ستونز». قال لي مشيراً إلى إحدى زوايا السجادة القريبة. وفعلاً، كنا نرى طبول الحمار والرجل باللباس الأبيض يقفز عليه مع غيتاره.

- همم، قلت، غير قادر على إيجاد شيء آخر لأضيفه.

بقي أنتوني لفترة صامتاً، لكن بدا هذا الوضع أسوأ، شعرت أني محاصر أكثر مما لو لم يلتزم الصمت. زيادة أنه بدا ودوداً جداً، وقد كنت أصلاً أشعر بالحيرة.

قدّمت إليه الزجاجة.

- أوكي، قال لي، وشرب جرعة واحدة. نظّفت الزجاجة

بطرف قميصي، وشربت جرعة بدوري، وهكذا كان مكتوباً علينا أن ننهي نحن الاثنين زجاجة البيرة هذه، لكن حسناً، هكذا هو الأمر، نحن لا نستطيع الهرب من المدينة التي نعيش فيها. مرّ أحدٌ ما بالقرب منا وأضاء فلاش آلة التصوير، أضاءنا وأعمانا ونحن أمام الأقراص. بعد جزء من الثانية، عاد الستار ـ بكس والكي ـ مارت كما الأقراص للظهور مرة أخرى. سألت أنتوني عن اسمه، فقال أنطون، وشيء ما بدا لي كلفظ «اينسكي».

– كانديسكي؟ سألته. فابتسم.

– لا، أنطون دوميدوفسكي، لكن الناس يدعونني سترافسكي، بسبب الموسيقي. شرح لي، وأراني حمار الرولينغ ستون.

الفصل السادس والعشرون

استلقيت قليلاً كي أرتاح، وفي اللحظة نفسها سمعت طرقات أنجيلا على الباب. نهضت كي أفتح لها، وطلبت منها الجلوس. كنت قد فكرت في مشكلة زوجها وفتاة الزهور، واعتقد أني وجدت لها حلاً.

– سألتها: باسم من ملكية المنزل أنجيلا؟ ولم يظهر أن هذا السؤال الفجائي والعملي بطبيعته قد أربكها.

– إنها باسمي.

– عظيم إذن، قلت وأنا أشعر بالراحة.

– لا يوجد مجال إذن للمراوغة. اطلبي منه إما أن يترك عشيقته أو يرحل. أنت لست بحاجة إليه، أليس كذلك؟

– لا بالطبع، الأولاد قد كبروا.

بدا هذا يعزّز ما كانت هي الأخرى قد قرّرته. كنت على وشك

أن أقول لها: «إذن اتفقنا» لكني أحجمت عن القول. بقيت أنجيلا في الغرفة النصف مضاءة، بكل جمالها، وضخامتها، تفكر بشدة، وبجديّة مثلما نرى ذلك عند الأطفال الأذكياء خاصة. لم أرغب أن أذكر لها أن زوجها ليس مجنوناً، وأنه لن يغادر بصحبة تلك الفتاة، لأنه في هذه النقطة بالذات خشيت أن أكون مخطئاً.

– نعم، قالت أنجيلا، الأولاد أصبحوا كباراً. هل تراودك الرغبة في فنجان من القهوة؟

أجبتها بالإيجاب. فذهبت لتحضيره، وأنا عدت إلى مكتبي، ووضعت موسيقى لـ بيكوللو، فتتالت أصوات الأوتار والحبال في الموسيقى حتى يُخيّل لمن يسمعها أنها مؤلفة من عصافير الشحرور الأزرق، وبالطبع كانت الأصوات تتشتّت بتوليفات لا حصر لها من ألحان الناي، فلم أستطع الكتابة. «هذه الموسيقى التي تضعها، تبدو كما لو أنها موسيقى أسبوعٍ الآلام، لكنها أكثر جمالاً» قالت أنجيلا. وكان هذا أمراً مشكوكاً فيه، فأنا كنت أصغي لـ: «ميل دافيس[28]» من وقت لآخر «ول بيشيه» وللمقطوعات الأكثر بطئاً «بي وي راسل وديانفو رينهارت» لكني كنت أسمع أيضاً أغان باللغة الاسبانية لـ : أماند هيغل، لوشو غايتكا، وأغاني شاميلا فارغاس عندما كانت لم تزل فتية ولم تكن بحاجة للتّبجّح كما فعلت عندما أصبحت متقدمة في السن. المطربون القدماء، الملاكمون، مجذفوا القوارب، ومصارعوا الثيران كما لاعبوا كرة القدم، عندما لا يأخذون تقاعدهم في حينه يصبحون جميعاً باعثين على الرثاء. أقولها، أنا،

---

[28] ميل دافيس: يسمى ملك الجاز.

الذي جعلني أو سوف يجعلني التقدم في السن أعمى كما فرخ العصفور لحظة خروجه من البيضة، أنا الذي كنت مرغماً على ترك المهنة التي أحبها كثيراً وأستسلم للكتابة. ومن يعرف بعد كم من الزمن أيضاً باستطاعتي خطّ كلمات قصتي على هذه الأوراق.

جلبت لي أنجيلا القهوة، وفي اللحظة التي وضعتها على الطاولة، رنّ جرس الهاتف. «هذا لا يحمل لنا في العادة أي أخبار طيبة» قلت لها، وطلبت منها أن تذهب لتجيب من المطبخ. عادت، وكان فعلاً ما توقّعته:

– إن كان الصحفي الذي سوف يأتي عجوزاً، قولي له أني مصاب بالزهايمر، لكني أعيش أياماً سعيدة. وليعد ليتصل من جديد.

– لكن لست مريضاً بالزهايمر دون دافيد.

– أنجيلا...!

– آه حسناً، حسناً، إنها صحفية شابة على ما أعتقد، امرأة.

– امرأة، هل أنت متأكدة؟ سألتها، فابتسمت أنجيلا كما توقعت، وأشرقت قسمات وجهها.

كانت الصحفية شابة تدعى فلورا أو فلور، وتتحدث بلكنة فرنسية. كانت فكرتها تقوم على كتابة دراسة عن ثلاث فنانين تشكيليين من ذوي أصول لاتينية ـ أميركية، وكنت واحداً منهم. «أنت الفنان الرئيسي» قالت لي، وهذا ما ضايقني، هذا الهوس الذي يُشكِّلُ فيه الناس التسلسل الذي يفسد في نهاية المطاف الفنانين. «هل هذا يعني أن الفنانين الآخرين سيكونان من مرتبة ثانية؟» شددّت على القول كي أجعلها ترتبك. ففقدت تركيزها.

وأعطتني الاسمين الآخرين، اسمان آخران من المثانة العجوز،

مما جعلها تفقد أكثر رباطة جأشها، وانتهى الأمر بأن ضحكت على نفسها.

«هل الدراسة لأجل فرنسا؟» سألتها هذا السؤال، نظراً لأنه لم يكن لدي أي تفضيل لبلد أو قارة. نعم، قالت، لـ باريس.

– ولماذا لا يكون فناناً يابانياً، أو مغربياً، أو هولندياً آخر؟

عدت لأسألها، وأجابت الفتاة التي كانت قد التقطت أنفاسها أنها تجد الفكرة مدهشة، وأنها سوف تطرحها بمجرد انتهائها من مشروعها هذا. فقلت لها أنها تستطيع المجيء لرؤيتي، وهكذا تقرّر الأمر.

السابع والعشرون

مرّ شابان ضخمان، موشومان، على شكل بابلو، أمام منحوتة الملعب.

إنه عالم دون كرب، فكرت، سيصبح أيضاً عالم غير كامل، وغير متناغم، وبشع مثله مثل منحوتة، أو شجرة خالية من الظلال. كنت هنا أعيش الاختناق، والسجن، عند حافة منحوتة ملعب ساحة آستور، بالقرب من لا أعرف أي أنتوني، أمام خمسون قرص فينيل مضاءً من نور مصباح.

إن صح القول أن الشعور بالألم يصبح محتملاً عندما لا يكون ألمنا، فإن ألم ابني كان هو أكثر ما يعنيني، كنت أتحدث إلى أنتوني، وفي الوقت نفسه كنت أتألم. فهمت بشكل جيد تعابير وجه جاكوبو عندما حاول أن يكون له علاقات اجتماعية، أن يكون موجوداً مع أشخاص آخرين في الصالون، بينما كانت آلام قدميه وبطنه يعذبانه.

كان قليل الكلام في حالات كهذه فالألم كان يمنعه من الكلام، يكتفي بالابتسام بين وقت لآخر، وفي ابتسامته كنا نرى انقباض ودموع الألم تداهمه باستمرار.

ابني البكر.

كان أنتوني يحكي بينما كان اللهب يلعق أعماق عيني وعقلي، أنه كان يعيش من بيع وشراء هذه الأقراص، التي كان بعضها يشكّل ثروة حقيقية. الدراجة هي الشيء الوحيد الضروري لعمله كما السلة. الذي لا يُصدق هو أنه سافر إلى كل مكان في العالم كي يشتري الأقراص ثم يعود ليبيعها في نيويورك. كان لديه زبائن في ماديسون، وفي الجادّة الخامسة لبارك أفنيو. ذهب إلى بوغوتا، قال، وذهب إلى الهند، وهافانا، لكن مدينة ساوباولو كانت المفضلة لديه، جلب منها مجموعة من أقراص الفينيل النادرة والمحفوظة جيداً.

– بكلمة أخرى، قلت له كي أروّح عن ألمي، العدّة هي الدراجة، والسلة والطائرة.

ضحك مسروراً من نفسه، معجباً في الحقيقة بنفسه، وطلب مني جرعة من البيرة. أنهى الزجاجة وذهب كي يشتري زجاجتين منها.

– هناك خطب ما، صحيح؟ Something wrong,right? سألني في اللحظة التالية. قام عندها رجل بالشرح بلكنة ميدللين القوية إلى آخر ذو لكنة روسية ـ كما نقول غرّيبين في نيويورك ـ ما جرى، والذي على وشك أن يجري، والذي سوف يحدث بالتأكيد لجاكوبو، إنه البكر، ذو الثمانية والعشرين عاماً. لم يحاول أنتوني أن يحبطني، ولا أن يربّت على كتفي كي يشدّ من أزري، لاشيء من هذا أبداً. «أوه يا رجل!» اكتفى بالقول.

نيويورك مدينة بشعب محتشم، ولقاطنيها قلب كبير، لكنهم لا يتباكون، ولا يحبون أن يظهروا عاطفة تبعث على السخرية، على الأقل في العلن. بتعبير آخر، هناك طريقتان للتصرف في هذه المدينة: إما إنقاذ المظاهر، وإما البقاء صامتين تماماً، لنتحدث وحدنا مع الأشباح ونحن على الجسور أو في الطرقات.

بعد ذلك، تحدثنا أنا وسترافيسكي عن أمور أخرى، أو كنا نبقى صامتين. «أوه يا رجل!» عاد فقالها مرتين بصوت منخفض، كما لو كان يتابع التفكير بقصة جاكوبو. من طرف الجادّة الثانية جلست مجموعة من الناس من ذوي الرائحة الكريهة. نساء ورجال بثياب بنية وسوداء اللون، قذرة، يعزفون على الغيتار بشكل سيء، ويعزفون على الناي والطبل بشكل أسوأ. كانوا يعلقون حلقات في أنوفهم جالسين قرب حقائب طويلة سوداء وقذرة. عندما كان يهب النسيم كانت تصل رائحة العرق الزنخ حتى عندنا. عند حوالي الساعة الثالثة صباحاً، أمسكنا بأيدي بعضنا أخيراً كي نقول إلى اللقاء، وتابع كل واحد منا طريقه في بحر الليل النيويوركي.

رغبت بشدة لو أن سارة كانت هنا، وقرأت ما كتبت للتو، كي تقول لي: «هذه الحركة الأخيرة، كانت جد متكلّفة لدرجة أعطتني الرغبة في تقبيلك» كانت تقول لي أشياء كهذه، أحياناً وليس دائماً، فقط عندما كانت تعلم أنها سوف تقلل من تركيزي.

شطبتُ مسألة البحر النيويوركي تلك. عدت إلى المنزل عبر شارع لافاييت وبليكر، كي لا أمرّ بالقرب من الفتيان الشحاذين. قرب الجادة الثانية، حاذيت لاسال، ثم بقيت لفترة عند زاوية الحاجز المشبك للمقبرة حيث كان بالإمكان رؤية نوافذ الشقة. كان الضوء يحيط

ويزخرف بظل المشبك الحديدي، أوراق اللبلاب التي كانت تصعد من المقبرة، جاهزة للترحيب كما لو أن هذا المكان لم يعرف الألم.

نظرت إلى المقبرة. «هيلين لويس والاس 1880 ـ 1975». كانت في سن الخامسة والتسعين عندما عادت إلى العدم.

فتحت باب البناء، فظهرت أمامي آنبر، وكأنها قادمة من لا مكان. حيّتني بابتسامة وسألتني عن أخبار أرتورو. فطلبت منها الصعود، وأخبرتها أن أرتورو بخير، وهو في الأعلى. من المؤكد أن آنبر كانت قد عادت إلى بيتها، لأن كل ما كانت ترتدي، ماعدا الحلي، كان مختلفاً عما كانت تضعه في الساعات الماضية. البنطال الواسع، كان بلون أخضر داكن، والصندل من المطاط البرتقالي اللون والشفاف. كانت خفاش صغير حقيقي من الجانب الغربي. أتذكر الآن، وأنا استرجع رؤيتها وهي تتسلق الدرج المضاء بشكل سيء، فلو أنها أرادت الطيران لاستطاعت فعل ذلك كما خفافيش لاميزا، التي تشبه الفراشات.

– آنبر، كم الساعة؟

أجابتني أنها الخامسة وخمس دقائق.

«هل أنت متأكدة؟» أعتقد أني قلت هذا كما لو كانت الكلمات تفقد شيئاً فشيئاً قدرتها على احتواء الزمن، كما من قدرتي على فهمها، وكما قدرة الساعات على قياسها.

الفصل الثامن والعشرون

يدعى زوج أنجيلا جوزيه لويس، أو ربما جوان بابلو، والابن يدعى جوان بابلو، أو ربما جوزيه لويس أو ربما جوان جوزيه.

– قولي لجوان بابلو، من فضلك، أن يأتي غداً كي يأخذني عند كاتب العدل.

ليس هذا أكثر من مثال، فكاتب العدل لم يكن يبعد عن المنزل أكثر من خطوات، لكن لم يكن لدي الوقت كي أبحث عن سبب آخر قابل التصديق كي أعطيه.

– تقصد جوزيه لويس دون دافيد. لأن جوان بابلو هو زوجي.

كنت أناديه بحسب الحالة جوان لويس أو لويس بابلو مع خليط آخر من الأسماء. ونادراً ما أصبت بشكل لا يُصحح لي الاسم. كان ابن أنجيلا ثرثاراً، في الحقيقة، لكنه ظريفاً، زيادة على أنه كان يقود بشكل جيد. حكى لي في إحدى المرات حكاية عن اثنين من الفلاحين، أب وابنه كان ربما قد رآهما في حقل بالقرب من قرية تدعى فونزا، وهما يلاحقان بالحبل بقرة كبيرة غير مربوطة، من تلك البقرات الهولستين بقوائم طويلة من السافانا في بوغوتا.

«كـان الفلاحـان صغيري الحجـم، داكـني بالبشـرة، كمـا هـؤلاء المنحدرين من سلالة المويسكا[29] والبقرة، كمـا سبق وقلـت، كانـت ضخمة. وصلا أمام سياج، فقفزت البقرة كما لو أن شيئاً لم يحصل، كما لو أنه لم يكن هناك أي عائق، كمـا لـو أن لهـا جناحـان غـير مرئيين، بينما بقي الفلاحان وراء الخطوط الخمس للأسلاك الشائكة ينظران إليها وهي تبتعد، ويتبادلان النظر فيما بينهمـا، كـل واحـد يمسك بحبل في يده».

كان كل ما يحكيه ابن أنجيلا يأخذ شكل صور، فإذا ما أخـذنا ورقة وقلم لأمكننا رسم كل تلك الصور كما يرويهـا. كانـت القصـص دوماً غامضة ومضحكة، ونادراً تقريبـاً مـا يكررهـا لأن لديـه فـائض منها: كان لديه نظرة اطّلاع، ويعرف كيف يتأمّل العالم، كما كـان يحمل حباً كبيراً وإعجاباً شديداً بسيارتنا الستايشن. كان أمـراً غـير محتمل بالنسبة إليه ـ كان يقول لـي ـ رؤيتـه لسـارة وهـي تملؤهـا بالأحجار المغطـاة بالطحالـب، أو بسـلال النباتـات، أو برزمـات لا تنتهي مـن السـماد الـتي كانـت تشـتريه كـي تحـافظ علـى غـزارة الحديقة. عندما عدنا من جيراردو، نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، بدأ بغسل السيارة بالمـاء والصـابون ومـرّر المكنسـة الكهربائيـة علـى المقاعد والسجاد. جوان بابلو، أو جوزيه لويس، أو جـوان جوزيـه، يعتني بالسيارة كما لو كانـت حيـوان حـيّ، مهـر حسّـاس أو بقـرة حلوب. بقرة هوليستن.

في الساعة السادسة، كنت جالساً من جديد على كنبتي الصـفراء مـع كأسـي الـبيرة، بانتظـار الخفـافيش، وقـد أتـوا بالتأكيـد، أو

[29] الموسيكا: شعوب قديمة عاشت ما قبل الميلاد بـ 600 سنة في كولومبيا.

بالأحرى، ما اعتقدت أني رأيته، فالنتيجة ذاتها.هذا غريب كيف تذكرت آنبر في هذا الوقت. ربما بسبب ـ كما سبق وكتبت ـ كان باستطاعتها الطيران ونحن نصعد الدرج ذو الإضاءة السيئة.

يا للكلمات! كنت قد حاولت كتابة الشعر وبعض القصص عندما كنت فتىً يافعاً، ولم أنجح في ذلك. في ذاك الوقت بدا لي أن استعدادي كان أكبر نحو الرسم، ورثت ذلك عن عائلتي التي كان فيها عدّة كتّاب. وبعودتي إلى الكتابة مرة أخرى، وباكتشافي كم كانت الكلمات مطواعة، وإلى أي درجة كانت قابلة للتعبير وحدها، أو شبه وحدها، عن الالتباس، وقابلية التحويل كما قابلية الخطأ في الأمور. إنها تشبه العالم: تترّنح كما منزل يلتهب، كأجمّة مشتعلة. كل ذلك دون أن أتوقف عن الحنين لرائحة الرسم بالزيت أو ملامسة غبار الفحم، دون أن أتوقف عن التأسف للقشعريرة المشابهة لقشعريرة الحب، الذي يولد لحظة نلامس المطلق، عندما نلتقط الضوء الهارب، الضوء المتلاشي، مع القليل من الزيت الممزوج ببودرة حجرٍ أو معدن. أعتقد أني كتبت في مكان ما أن الكلمات هي أدوات فظّة وها أنا في الوقت الحالي أدّعي أنها مرنة. كلٌ من الأمرين كان صحيحاً، فكل شيء يتعلق بالكلمات إن كان لديها رغبة بإظهار فجاجتها أو إن تكّرمت وأظهرت نعومتها.

كانت سارة تنتظرني على باب الشقة، نظرت في عينيها لأرى إن كان هناك من جديد من بورتلاند. جاء كريستوبال ليتمسّح بقدميّ، أشارت سارة بعلامة نفي برأسها، وضمّت آنبر إلى صدرها، وأبدت إعجابها بثيابها. خرج أرتورو المخلّع في مشيته من غرفته، وأخذها هو الآخر بين ذراعيه. لم تتجاوز أجفان آنبر المكحّلة بالأخضر الزيتوني مع خط أسود، عظم صدر الصبي.

الفصل التاسع والعشرون

- تذكّرت السلام الذي كان يغلّف خالتي المسنّة، التي ماتت وهي في الخامسة والتسعين أو أكثر، وهي تتأمّل العالم بعينيها المائعتين، الزرقاوتين، والهانئتين. عندما كنت طفلاً لم تتوقف طمأنينة وسلام هذه السيدة العجوز عن مفاجأتي، عندما أصبحت راشداً، نسيت تماماً هذه القصة، والآن فجأة، لا أتذكّر السلام والطمأنينة فقط، بل أفهمهما أيضاً، وليس فقط أفهمهما، بل أتشارك معهما. وتحولت هيلين لويس والاس بقدرة قادر ـ كما يقولون ـ إلى خالة والدتي أنتونيا استرادا، الأخت العزباء لجدتي ناتاليا، التي عاشت على الدوام معها، وهي تغزل الصوف، تقرأ، أو تدخن البيبيرلوخا، وتحبنا.

هذا الصباح بقيت أكثر من المعتاد تحت غطائي الكهربائي الذي قدّمه لي أولادي. لم أكن مكتئباً، بل على العكس تماماً فكل شيء كان على ما يرام نظراً لسريري: كنت مركّزاً جداً على العالم، هادئاً جداً، لدرجة أن نهوضي من السرير بدا سخيفاً.

كان لي اثنتين من الخالات، وكانتا تمثلان «اليان والين[30]» بالنسبة للعمّات الكبار في السن: أنتونيا، من جانب والدتي، والشريرة بابيتا من جانب والدي، التي كانت تتعامل مع بنات أختها على أنهن مصابات «بالحول» أو «بالعمى». إنها مصادفة بحتة. ولا علاقة لطريقة العائلات المحترمة بالأمر.

– هل كل شيء على ما يرام دون دافيد؟ سألت أنجيلا عندما دخلت الغرفة في التاسعة والنصف صباحاً كي تأخذ فنجان القهوة الذي وضعته على الطاولة منذ السابعة صباحاً، ولتجلب لي غيره.

– كل شيء على ما يرام أنجيلا. ضعيه لي على طاولة المكتب من فضلك، لن أتأخر بالذهاب إلى هناك.

– حسناً سيدي. أنت تنام حتى الضحى.

– حتى الضحى، نعم.

– كم ملعقة سكر؟

– واحدة، كالعادة أليس كذالك؟

– هل أنت واثق أنك بخير؟

– حسناً... حسناً أنجيلا، توقفي عن إزعاجي، اتفقنا؟

– اتفقنا يا سيدي المتذمّر.

بقيت لفترة أخرى في السرير، ثم نهضت أخيراً كي أتناول القهوة قبل أن تبرد. أضأت مصباح المكتب، ووجهّت عدستي المكبرة على الورقة، وغمست الريشة في الحبر وملأت الخزّان باللون

---

[30] اليان والين: هما رمزان في الديانة البوذية يمثلان الذكر والأنثى، ويمكلان بعضهما البعض.

النّاضج.

حدث ذلك منذ تسع عشر عاماً، عام 1999، عندما عدت من ساحة آستور حيث تناقشت مع أنتوني سترافيسكي، ورجعت بعدها إلى البيت. ذهبت إلى دورة المياه كي أتغوّط، ومن ثم إلى غرفة الحمام كي آخذ نصف قرص آخر من مهدئ الأعصاب. وبما أني كنت قد تأخرت قليلاً في الخارج، فقد كان الجميع قلقاً على ما يبدو، وقد اجتمعوا من جديد في غرفة الطعام.

عدت من الحمام وعرفت معنى الصمت الذي يتشكّل عندما نكون على وشك الحديث عن أحد ما. نظرت إلى المرآة، فكان الانقباض بادياً على ملامح وجهي، لكني لم أكن أنوي أن أحلق ذقني في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، ولا أحد طلب مني ذلك. كان أرتورو وآنبر يقومان بلعبة بأيديهما مُختلقة دون شك، مبتكرة من خيالهما الخاص، حيث كانا هما الاثنان يجهلان تماماً قواعدها والتي تتألف من تخمين أي أصبع سوف نحرّك. وضع أرتورو كفّ يده عدّة مرات على الطاولة، باطن كفّيه للأعلى، وكانت هي تضع كفّيها فوقهما، في الدور الثاني، كانا يعكسان الوضع. كانا يلعبان بصمت دون أدنى رغبة. قالت آنبر ذات الكفّين الطويلين والناعمين «غشاش» وتوقفت فجأة عن اللعب. شعرت فينوس كما جيمس وديبرا بالارتباك بالطبع، وكذلك الحال بالنسبة لي ولسارة. لكن فقط للحظات ليست بالطويلة على كل حال، كي نسأل وننتظر بعض الصراخ من قبل الشابين. كان أرتورو في الرابعة والعشرين من العمر، وآنبر في الثامنة عشر، وبدا وكأنهما لم يزالا في سن المراهقة، وكان هذا يبهجني بطريقة ما لأني لم أفهم مطلقاً

كما لم أرَ أبداً، ما الميزة في أن نصبح جدّيين ومسؤولين بشكل مفرط. وكذلك الأمر كان بالنسبة لسارة.

بعد أن قدّم أرتورو امتحان البكالوريا وهو في التاسعة عشر من العمر، أخذ عاماً كاملاً من الاستراحة، وذهب إلى ماتشو ـ بيتشو، وإلى تايلاند، وأماكن أخرى. عندما عاد، أخذ عاماً آخر من الحرية كي يسافر إلى مناطق أخرى في الولايات المتحدة الأميركية مع مجموعة من مغني الروك. عاد من جديد، ودخل الجامعة كي يدرس الفن وهنا أصبح علي على علاقة بـ آنبر. أما فيما يخصها، فقد كانت تملك مشروعاً غامضاً للدراسة، في أحد تلك المدارس المتعددة لتصميم الأزياء الموجودة في نيويورك، بالمقابل، بابلو الذي أخذ على عاتقه منذ البداية العناية بأخيه، تولّى دوراً أكثر خطورة، ولم يسافر إلا قليلاً عبر العالم. كانت حريته هي وشمه الجميل، واستخدام آلة التصوير في الطرقات. من ناحية الصديقات، كان لديه الكثيرات ولم يكن لديه أحد، في بعض الأحيان كان يأتي بهن إلى المنزل ويقدمهن إلينا، لكن لم يثبت على أيّ منهن لمدة طويلة، دون أي سبب يذكر. بهذا كان بابلو يصل غالباً إلى أبطال روايات الحب التي كانت تغرق فيها خالتي أنتونيا ـ والتي سبق وقرأتها وأنا صغير السن، لأنها كانت تعيرها لي ـ ربما لم يكن قد قابل بعد الشخص المقدّر له، نصفه الآخر، حبّ حياته.

الفصل الثلاثون

– العشاء جاهز، سيدي المتذمر. لن تتركه يبرد هذه المرّة،

قالت أنجيلا عبر فتحة الباب. أطفأت المصباح وأغلقت عيني كي أريحهما لبضع لحظات. فتحتهما من جديد، ونظرت للنافذة حيث كانت أزهار الجهنمية البنفسجية غير الدقيقة اللون تحيط بها. كان كل شيء يتماوج، يتلاشى، أو يسيل.

– سيبرد الطعام، قالت أنجيلا.

الغداء، القيلولة، القهوة: كنت أذهب مع أنجيلا إلى المخبز حيث يبيعون أشهى مربى بالحليب في البلد كله، على بعد بضعة كيلومترات فقط. نمرُّ أمام الكنيسة المشوّهة قليلاً بأبراج بعيدة بعضها عن بعض مما كنا نراه عادة، حيث تدخل أنجيلا إليها كي تصلي للحظات، وأنا أنتظرها على أحد المقاعد، وذقني مسنود غلى مقبض العصا. تعود أنجيلا. وتسير بمحاذاة طريق ضيق تتهادى فوقه الحافلات. تشتري كمية من مربى الحليب، وكمية أخرى من القهوة من عند السّمان. ومن جديد يتموّج العالم بالسيارات

والحافلات، عالم سائل، كما بركة من الزيت الشفاف. نصل إلى البيت، تعقبها بضع دقائق في السرير. لم اعد أستطيع القيام بأي نزهة صغيرة دون أن أقوم بعدها بقيلولة.عدت بعدها إلى العدسة المكبرة:

ثم، اتصل ميكائيل أونيل وتحدث مع سارة، كنت على وشك تجهيز القهوة. أصبحت أجفاني ثقيلة وعينيّ تحرقانني. «نعم يا صغيري» كانت تقول سارة، كان للغة سارة الإنكليزية لكنة وادي الكوكا، كما لكنتي التي لمنطقة ميدللين، لكن لكنتي ـ بالرغم من أنها أقل إتقاناً ـ كانت أكثر مرونة وفعالية، وتعبيرا. هذا باختصار ما كانت تقوله لميكائيل: «الساعة السادسة في بورتلاند، الساعة التاسعة هنا، نعم يا صغيري، بالطبع، هادئ، أعتقد ذلك. ماذا تقول؟ نعم، نعم. يصل الساعة السادسة، على الساعة المحلية. نعم، آه لا، لا ميكائيل» قالت ذلك وقد غصّ صوتها: «نعم، نعم، أقبّلك أنا أيضاً. سوف نتصل ببعض، نعم» ليس هناك من جمرة ملتهبة تحرق دون أن تُستهلك. بالنسبة لي، كنت أنا على وشك الاستهلاك.

قدّمت لنفسي فنجاناً من القهوة وذهبت كي آخذ النصف الآخر من قرص مهدئ الأعصاب. لأن رهاب الاختناق والمكان المغلق كان يهدد بالعودة من جديد. سألتني سارة إن كنت بخير، فقلت لها لا بأس، ولم أطلب منها أن تكفّ عن مضايقتي كما فعلت هذا الصباح مع أنجيلا. بالرغم من أني كنت على وشك القيام بذلك، بل قلت لها ببساطة أن لا بأس، وشعرت أني على شفير الانفجار، فتركتني وشأني.

«هيّا، اجلبي فنجان آخر من القهوة، لهذا السيد المتذمّر، هل بالإمكان». قلت لأنجيلا منذ لحظة، كي أسامح نفسي على مزاجي السيئ هذا الصباح، والجديّ دوماً. بدت كمن لا يقبل الاعتذار. لكنها ظهرت من جديد بعد لحظة وهي تبتسم، حاملة فنجاناً من القهوة.

كان هناك كلام تحت لسانها. وكما توقّعت تماماً، فقد رحل زوج أنجيلا مع فتاة الزهور. لم تكن تعرف أنجيلا أين يعيش زوجها والفتاة، وكان هذا آخر همّها. لكن ليس هنا الجديد، بل الجديد هو أنه تابع مجيئه للعمل في الحديقة لتتابع هي بدورها الاعتناء به وتقديم وجبة الغداء له، كما كانت تفعل في السابق، لكن دون أن يتبادلا أي كلمة. حاولا في البداية استخدامي كوسيلة للتواصل بينهما فرفضت رفضاً قاطعاً.

قلت: «حاولا أن تتركا رسائل، تدبّرا الأمر كما تريدان، لكن لا تدعوني أتدخّل في هذه المسألة». فكيف سيبدو الأمر مع سيد في السبعين من العمر، مثلي، يقول للزوج السابق:

– اسمع جوزيه لويس، أرسلتني أنجيلا كي أقول لك إن الطعام جاهز.

والزوج السابق يرد:

– جوان بابلو دون دافيد، فجوزيه لويس هو ابني. شكراً جزيلاً. قل لها من فضلك أني سأصل حالاً.

– أنجيلا، جوان لويس سيصل.

– شكراً دون دافيد، من هو جوان لويس؟.

كل هذا بدا لي بالأحرى مضحكاً. كانت سارة ستقول «ليس

مضحكاً في الواقع بل ظريفاً».

أنا رجل جديّ، ولكن بحسب معرفتي، وأتمنى ألا أكون مخطئاً، لدي حسّ الفكاهة. أعرف ذلك لأنه في وقت ما، كان لدي العادة في كتابة الرسائل، الكثير من الرسائل، للذي يرغب ويشاء. كان الناس يقولون عنها أنها مضحكة، ولا بد وأن هذا كان صحيحاً لأني كنت أتسلّى أنا الآخر في كتابتها. أو بالأحرى كنت أكتبها لأجل أن أتسلّى. استلمت سارة مراسلات ضخمة مني، المسكينة. أحياناً، كنت أترك لها رسالة على مكتبها، وأبقى بحالة تأهب في مرسمي كي أتأكد إن كنت سأسمع ضحكاتها. وكانت تقول لي أن رسائلي ساحرة بالرغم من نزعتي لأبدو أكثر عمقاً أحياناً، أو لأشتكي عندما كانت الشجاعة لا تخونني.

بالرغم من الوقائع التي كنت أودعها كتابي، أو ربما بسبب ذلك تحديداً، تبيّن لي أني أنحو نحو الهزار. الحقيقة، أن وقتاً طويلاً قد مرّ منذ تلك الأيام، تسع عشر عاماً، والألم في القلب لم يعد أبداً كما في السابق إلا للحظات. وكذلك الأمر بالنسبة إلى لهيب النار، والاختناق الذي لم يعد ضاغطاً كأيام زمان إلا في بعض اللحظات فقط. لكن ما جرى وحصل لم يزل يكبّلني بالطبع ويجعلني أدخن، وأتمدد كي أنام قليلاً، لأنه كان أمرٌ جللٌ، لكن الفرح يطفو دوماً، أو تقريباً دوماً، كما قطعة خشب تطفو على سطح الماء، حتى بالرغم من أن الأحداث المرعبة التي عشناها كانت دون قعر.

مع قصة أنجيلا، اكتشفت وأنا بهذه السن، أن الرجل متى جاع، لم يكن بحاجة إلا لمن يناديه للطعام. فعندما كانت الساعة تقترب من موعد الغداء، كان الزوج السابق يأخذ مكانه شيئاً فشيئاً

قرب الطاولة في آخر الرواق، حيث كان يُقدّم له الطعام. كان يزيل الأعشاب، ويعالج الضار منها باهتمام شديد لكن دون أن يحيد عن النظر إلى الطاولة بطرف عينه لحظة واحدة. وكان بإمكان أنجيلا أن تعذّبه فتتأخر بوضع الطعام عشر أو خمس عشر دقيقة، حتى يسمع جوان بابلو أو جوزيه لويس قرقعة بطنه، أو كانت تقدم له الطعام قبل نصف ساعة من الوقت المحدد، عندما لا يكون مستعداً بعد، كي يبرد حساؤه ويسقط الذباب فيه، لكنها لم تكن تفعل ذلك. كانت جدّ محترفة كي تنزل إلى هذا المستوى من الأفعال. كانت تقدّم الطعام في موعده الدقيق، تذهب، وهو يبقى. نحن مجرد قرود مليئة بالمكر والدهاء، نحن البشر.

الواحد والثلاثون

انتهت سارة من الحديث مع ميكائيل وبقيت للحظات جالسة في الصالون مواجهة لي دون أن تقول شيئاً. وقد تضاعفت قوة الجاذبية على الأرض.

– تعرّفت على أحد الروس السابقين الذي يعتاش من بيع أقراص فينيل لزبائن في الجادة الخامسة ولشارع بارك ـ أفينيو، قلت لها كي أصرف انتباهها. يسمونه «سترافيسكي الفينيل».

وحكيت لها قصة سفرياته.

– هل تعتقد أن هذا صحيح؟ قالت سارة.

– لا أعرف، أعتقد هذا. فهو معقد جداً بحيث لا يمكن اختراعه. أليس كذلك؟

– هل تعتقد أنه نادم؟

لم أعرف إن كانت تفضل أن يندم جاكوبو ويتراجع عن قراره أم لا.

– لا أعتقد، لا، أجبتها. بالرغم من أني كنت أعرف تماماً ما

كنت أنا أريده.

عند انبلاج الفجر، أصبح التعب مُنهكاً. استلقيت للحظات على السرير، واستيقظت في الساعة العاشرة. كانت الشمس تدخل كالسيل من النافذة المطلة على المقبرة، وكريستوبال ممدد على الحافة، وكان يلمع.

مرّ وقت طويل لم أرَ فيه أشعة الشمس.

في الحياة، تمتزج الأمور الكبيرة مع الأمور الصغيرة، ومع المسيرة الطويلة للزمن يتلاشى المنظور، فلم يعد أحد يعرف أيٌّ هي الأمور الصغيرة وأيها الكبيرة. لا أحد يعرف إن كان هناك أشياء أقل أهمية من أخرى. لا احد يعرف إن كانت الأشياء تملك نوعاً من النظام أم تبقى عشوائية. في هذه اللحظة، مثلاً، الأمر المهم هو أن فتاة الزهور كانت تجعل زوج أنجيلا السابق يعيش عيشة الكلاب، فقد جاءت هذه الأخيرة وأخبرتني بذلك. حياة القرف بدأت تقريباً في اليوم الثاني الذي بدآ يعيشان فيه معاً. كانت تخونه، وتجعله يقوم بأعمال البيت، ولا تقدم له أي طعام، ولا تنام معه.

ابتسمنا نحن الاثنين.

عدنا إلى بوغوتا يوم السبت، لأجل عينيّ. لا يوجد هناك حلّ. تقريباً لا أحد من المرضى الذين أصيبوا باللطخة الصفراء انتهى الأمر بهم إلى العمى. أما بالنسبة إليّ، فهذا ما سيحدث. ليس العمى بالمعنى الكامل، أعتقد بأني قلت ذلك سابقاً، إنما عماء مع بعض الضوء، كما مع بعض الظلال والأشكال. باختصار، ذهبنا لنتناول الغداء. شعرت بالحركة في مركز المدينة، نبض المدينة كما يقولون.

ذهبنا إلى المنتزه العام كي نختلط مع الناس ونأكل الذرة المشوية، التي كنت أعلكها بصعوبة والتي كنت دوماً أحبها، لم أعد أذكر منذ متى. جلسنا على مقعد تحت أشعة الشمس، وقصّ علينا ابن أنجيلا كم مرّة وهو على طريق غير معبّد كان يرى فجأة رجلاً مدججاً بكمية كبيرة من السلاح. «كان يحمل مسدسات، ورشاشات دون دافيد». قال ابن أنجيلا. لكنه تابع طريقه، وبعد خمس دقائق أخرى عاد ليرى رجلاً مسلحاً أكثر من الذي سبقه. كان ابن أنجيلا موهوباً بالعبثية، فهذا ما كان يعجبه، فقد كانت الصور تركض معلقة في الهواء للحظة، كرؤيا أو كقرعة جرس. لكن كان لكل شيء تفسير عنده. فبعد عشر دقائق، شاهد أشخاصاً على وشك أن يصوروا ويخرجوا مشهداً من مسلسل «المهرة الكستنائية» والذي كانت تدور أحداثه في البراري. لم يكن ابن أنجيلا ينظر إلى أنصاف الأمور، لهذا فهو أخذ وقته كي يسأل المخرج عن اسم المسلسل، وربما حتى سأله عن وصف أحداث الحلقة. لكن إن كان هذا هو الحال فهو يفضل ألا يقصها علينا.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها اختصاصي العيون. إنها المرة الأخيرة التي آكل فيها قرن الذرة المشوية وأجلس تحت أشعة الشمس على مقعد في الحديقة العامة: أشياء كثيرة سوف تعود لترى النور في قلبي: هذه الحديقة، سنتر بارك، حديقة النباتات في بروكلين، بحر كوني آيلند، النور في غواميرا، ضوء ميدللين، مدينة طفولتي، التلال الشرقية لبوغوتا، بحر إيل فارتو في ميامي، عندما لم يكن الإعصار قد اقتلع بعد الأشجار الرائعة للصنوبر الاسترالي الذي

كان موجوداً هناك، طيور الغاق التي كانت تقف على أغصانها، ابتسامة سارة، ابتسامة فينوس وأولاد فينوس، مقاعد الأسماك الخضراء لـ إيست ريفر، عينيّ جاكوبو اللامعتين والذكيتين جداً، الصوت الموسيقي لجيمس، وديبرا كلها على بعضها (كانت ناعمة جداً) أو وشوم بابلو، تمثالنا العملاق المزين والثابت كما الصخرة، والأصابع الطويلة لأرتورو، المشابهة تماماً لأصابعي.

أرى كل ذلك، بكافة تفاصيله، هنا في داخلي.

الثاني والثلاثون

كان كريستوبال يلمع تحت أشعة الشمس على حافة النافذة كما لو كان أصبع الله قد أزهر. ذهبت إلى الصالون وعلمت بمجرد أن نظرت إلى سارة أن جاكوبو قد مات. شعرت بألم كبير في بطني، وبغثيان يجتاحني، ورأيت وهجاً ضارباً إلى الحمرة. عندما عدت إلى وعيّ، بعد دقائق، كنت جالساً على الكنبة، وسارة إلى جانبي، وكريستوبال كان لم يزل هنا على نافذة الصالون هو أيضاً، كان ممتلئاً نوراً.

فقط في هذه اللحظة انتبهت أن الجميع موجود هنا. نظرت إلى الخط الذي كانت ترسمه الشمس على الأرضية، وتنسلّ مثل سكين.

– وبابلو؟ سألت.

– أخذ الطائرة. قالت سارة.

يجب علينا الآن الانتظار حتى نذهب لنأتي بجاكوبو. سوف نذهب نحن الأربعة إلى بورتلاند، يتوجّب على بابلو أن يقوم بهذه الرحلة مرة أخرى. كانت سكّين الشمس تنزلق بشكل غير

محسوس، والإطار المضيء بدأ يصغر شيئاً فشيئاً على الألـواح. نـزل كريستوبال من على النافذة، ومشى بنوره حتى غرفـة أرتـورو، كمـا لو كان كرة من لهب.

ناقشنا ونحن في الصالون، ومن ثم ونحن في غرفـة الطعـام أشـياء عمليـة ومحـددة. تحـدثنا عـن أصـغر إمكانيـة أن نجابـه مسـألة قانونية، وما هو أفضل إجراء ممكن لنا أن نأخذه إن حصـل هـذا أو لم يحصل. تحدثنا عن لوجستيات الموت: الإجراءات الإداريـة مـن أجـل الترميـد، وكلفتهـا. سـوف نلجـأ إلى وكالـة دفـن المـوتى في دياز،في الشارع رقم 2، وسوف تكون بسيطة وموجزة، كمـا تخيلـها جاكـوبو.

لحسن الحظ لم يقل أحدٌ أن موته كان أفضل له. فقد كـان قـولاً شائعاً وبشـعاً، وبالمقابـل فـلا أحـد كـان بمقـدوره معرفـة الحقيقـة. تناولنا طعام الغداء، كانت الشمس تلمع عبر أغصان أشـجار المقـبرة وتضيء تماثيل العذراء كما الصلبان، لكنهـا لم تعـد داخـل البيـت. اتصلت سلطات بورتلاند بنا، فأخذت سارة على عاتقها الـرّد علـى الاتصالات وتدبّرت أمرها بشـكل جيـد: «سـوف نـذهب في المسـاء» قالت أخيراً. اتصل بابلو حوالي الساعة الرابعة كي قول لنا أنه قـد هبط في غارديا، فقلنا له بأن لا يتجشّم مشقة العودة إلى البيت لأننـا سوف نغادر نحن في الساعة السادسة والنصف.

حكـت لـي سـارة أن ميكائيـل اتصـل حـوالي السـاعة التاسـعة والنصف صباحاً وعندما أبلغوه الخبر صرخ مبتهجـاً: «نعـم! نعـم!» مرتين كما مشجعي كرة القدم عندما يفوز فريقهم.

– مسكين ياميكائيل، علّقت سارة قائلة، لم أستطع أن أفهم إذا قالها هذا الصبي لأنه يتألم كثيراً، أو فقط لأنه بدا ساذجاً.

قمنا بعمل كل الإجراءات. حتى أننا ذهبنا إلى إيست ريفر لنثر الرماد، في ظهر أحد الأيام المشمسة. عندما استطعت أن أعود إلى عملي مرة أخرى، ونظرت إلى اللوحة، قمت ببعض اللمسات على الزبد ـ الذي كان بالأصل جميلاً جداً جداً ـ واليوم ها هي اللوحة معلّقة في مكان ما في بوسطن.

مرّ الزمن. لم يكن الباقي أكثر من صمت... مجرد صمت. وسوف يحل الصمت الآن.

الثالث والثلاثون



طلبتُ من أنجيلا أن تقرأ العشر صفحات الأخيرة التي كتبتها. كان من العسير عليها أن تفهم خطي.

أكتب الآن متلمساً لأنني لم أعد أرى بشكل جيد. قررت أن أتوقف وأن أكتفي برؤية العالم بعيون العقل وأن أستمع إلى الموسيقى التي كان على أنجيلا أن تتعلم كيف تشغلها على جهاز الحاسوب وأن أصغي إلى تغريد عصافير الدوري.

كنت أفكر كثيراً بجاكوبو وبسارة، كنت أفكر بولديّ المتبقين لي واللذين يأتيان مرة في كل سنة لقضاء بضعة أيام معي.

كنت أفكر بفينوس التي تأتي معهما أيضاً والتي كانت تذكرني بسارة عندما كانت بعمرها، وهذا ما كان يبعث الدفء في قلبي.

كان لفينوس ولدين بعمر العشر سنوات، توأمان من ذوي البشرة السوداء، وكانا الطفلين الأكثر تهذيباً والأكثر نحولاً ورشاقة مما بإمكاننا تصوره.

كان يمكنني أن أسجل على آلة تسجيل وأستمع فيما بعد إلى ما

سجلته ولكنني بدأت أتعب من الكلمات وسأضيف هنا الأسطر التي كتبتها بعد النزهة التي قمت بها منذ عام ونصف مع أنجيلا على طول الطريق الاستيطاني الذي يمر بالقرب من منزلها لأصف ما رأيته من لحظة انطلاقنا حتى وصولنا إلى ضفة نهر «أبولو» والذي يجري بين الصخور الكبيرة. كتبتها على شكل قصيدة أقرب ما تكون إلى الرسم لأنها عبارة عن ملاحظات للوحة لم تسمح لي عيناي برسمها:

... على اليسار منزل مع ببغاوات

يُسمع صوت النهر في كل الأرجاء

نصل إلى طريق من الحصى ونصعد

على السياج ينبت نبات السرخس

خلف السياج، مشتل للقهوة

وأحياناً صخور كبيرة

ينتشر عليها أحياناً نبات الصبار

نغادر الطريق العريض

ثم نسلك طريقاً ضيقاً

يحده من اليمين

سهول تحدها هي الأخرى صخور كبيرة

على اليسار

نباتات متقطعة ومتجمعة تشبه الدغل

وغابة كثيفة

يصبح صوت النهر في كل لحظة أكبر وأقوى

ننزل الطريق لنصل إلى الجسر الخشبي

الذي يصل فوق النهر بين الخضرة والمنحدرين

ها هو العمق. يأتي الماء ليضرب كل الحجارة ويتدحرج الاثنان معاً،

الحجارة والماء، ليشكلا ذاك الشيء الذي لا اسم له

لأنه هنا بالضبط تأخذ الكلمات نهاياتها.

عند المساء، بقيت لمدة طويلة على كرسي المرسم. ذهبت لأجلب زجاجة من الروم كنت أحتفظ بها في المطبخ، وشربت ببطء بضع جرعات لا أكثر شاعراً بظلمة ممتلئة بنجوم غير مرئية تخترق أعماقي. لم أكن حزيناً وأنا بهذه السن المتقدمة، بل بالعكس، حتى وإن كان التفكير بسارة، والتفكير بجاكوبو يوقظ بي الحنين والأسى. «عندما أجوع آكل، وأشرب عندما أشعر بالعطش» هكذا يقول التاويون[31]. وأنا أقول بدوري «سآكل عندما أشعر بالجوع، وأشرب عندما أشعر بالعطش، وعندما أشعر بالحنين سأصبح حزيناً».

عشت حياة جيدة حتى اليوم، عرفت الجانب الآخر للألم، وشعرت أحياناً أني لامست المطلق. ما الذي يمكن لكائن بشري أن يأمل أكثر من ذلك؟ قد يكون لم يزل أمامي بضع سنوات أخرى، وقد أصل إلى سن متقدمة مثل خالتي أنتونيا، إيسترادا، أو هيلين لويس والاس، لكنني سوف أعيش تلك السنين دون أن أكتب أي كلمة. من المحتمل أيضاً أن أكتشف مناطق جديدة، ومساحات أخرى.

---

[31] Tao: معلّمي فلسفة الزن البوذية.

آخر الكلمات: عرفنا للتو أن الزوج السابق لأنجيلا قد ضرب الشابة ضرباً مبرحاً، حتى الموت تقريباً. قال ابن أنجيلا أنه ضربها بشدة لدرجة أنه أخرج من فمها جهاز تقويم الأسنان. لم أكن حتى أعرف أنها كانت تضع جهازاً. وهو حالياً في السجن متهمٌ بمحاولة قتل، وقد سبق وهدده إخوة الشابة بالموت. لا أحد يصدق أنهم سينفذون تهديدهم، لأنهم كانوا ذو طبيعة جبانة ومتفاخرة. يجب عليّ البحث عن بستاني في الوقت الحاضر لينوب عنه، بانتظار أن نجد محامياً ليدافع عنه ويخرجه من السجن، آملين أن لا ينفّذ إخوة الفتاة تهديدهم.

طلبتُ من أنجيلا أن تكتب نهاية هذه الصفحات، رفضت في البداية بسبب ضعفها في الإملاء. ذكرّتها بقول كانت هي بالذات من سبق وقالته لي في إحدى المرات بما يخص كلمة «فوطة، أو فوطا».

– لا تقلقي، قلت لها، فحليب البقرة هو واحد، إن كُتب بحرف «حاء كبيرة، أو باء صغيرة في النهاية». على أي حال ما سوف أمليه عليك لن يتعدى الكلمة الواحدة فقط.

كلمة واحدة تُستخدم كثيراً، مثل كلمة «حب» أو أي كلمات مشابهة أخرى، من تلك الكلمات التي فقدت قوة مضمونها.

– آه، حقاً؟ حسناً، موافقة. قالت أنجيلا. لكن قل لي كيف نكتب كلمة «حليب».

– يا لنباهتك، أليس كذلك؟ مهما قلت فستكونين لي بالمرصاد.

– يا لـ... ماذا؟

– يا للخبث، يا للمكر، حسناً هيا بنا، من الأفضل أن تذهبي

لتجلبي الحبر، وأملي عليك الكلمة الأخيرة.

عادت، أمسكت بالريشة، وأمليت عليها الكلمة.

نظرت إليّ بجدية كبيرة.

– هنا؟ سألت.

كنت قد وضعت إشارة تعجب بعد المسافة الفارغة للكلمة التي كنت أريد كتابتها أجبتها:

– هنا، حيث وضعت الإشارة؟

– هل أكتب بأحرف متماثلة، دون حرف كبير وآخر صغير؟

– كيف؟

– قياس متماثل، كلها بالأحرف الكبيرة؟

– بالطبع، كي أتمكن من رؤيتها.

حسناً إذاً، قالت، ودون أن تتردد كتبت:

موذهــل!

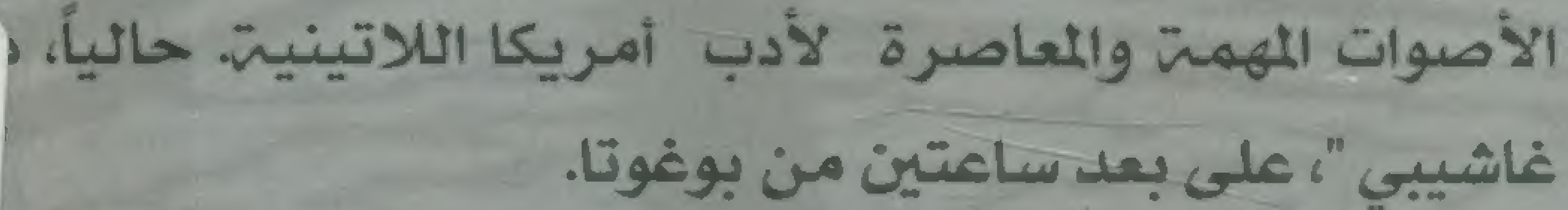


منزوياً في قرية صغيرة في كولومبيا، دافيد، الرسام الذي أصبح شبه أعمى، يسترجع ذكرى السنين التي قضاها في نيويورك، وفي ميامي، وهو يسعى جاهداً في لوحته، لالتقاط جمال النور اللامتناهي، لحبه لعائلته، ولليوم الذي قرر ابنه البكر جاكوبو أن يضع فيه حداً لحياته لينتهي من آلام شلل لا شفاء منه.

كان جاكوبو قد ذهب بصحبة أخيه بابلو إلى " أوريغان " المقاطعة الوحيدة التي يُسمح فيها بتنفيذ الموت الرحيم، بينما بقيت عائلته ، التي احترمت رأيه ، في نيويورك، تنتظر هاتف يعلن لهم بأن جاكوبو قد فارق الحياة.

هذا الكتاب المؤثر، الذي لا يخلو من الرقة والإيجاز، ذو الأسلوب الرقيق والسلس، هو بالمقابل أنشودة للحياة، وللتضامن ، ولاحترام الآخر. إنها القيم التي سمحت لعائلة جاكوبو بأن تسمو فوق القدرة الكلية للموت .

ولد توماس غونزاليس في مدينة ميدللين في كولومبيا عام 1950 . بعد انتهائه من دراسة الفلسفة في جامعة بوغوتا، عمل كعامل مشرب في أحد النوادي الليلية، قبل أن يذهب للإقامة في ميامي، ومن ثم في نيويورك، حيث



كتب أغلبية أعماله الأدبية. بعد عشر روايات ، أصبح غونزاليز صوتاً من الأصوات المهمة والمعاصرة لأدب أمريكا اللاتينية. حالياً، [...]
غاشيبي "، على بعد ساعتين من بوغوتا.

